الفصل الرابع:

العربية: (لنجوا فرانكا)

لغة التداول المشتركة للعالم الإسلامي والعصور الوسطى

لنجوا فرانكا هي تحريف الأصل العربي لغة الفرنجة: حيث جرت عادة العرب ومنذ الحروب الصليبية على تسمية الأوروبيين جميعاً بالفرنجة. وأصلاً كانت لغة مشتركة للتواصل في موانئ البحر المتوسط العربيّة: وقوامها اللاتينية المجرّدة (المقطّعة) الممزوجة بالفرنسية والإسبانية واليونانية والعربية مع كلمات تركية، ثم تطوّر معنى المصطلح ليعني لغة التداول والتواصل المشتركة عالمياً، مثلاً اللغة المشتركة في التجارة والمعاملات.

تعد اللغة العربية لغة التداول المشتركة للتواصل الإسلامي: ارتقاء اللغة العربية إلى الموقع العالمي له ارتباط وثيق بتطور الإسلام. الإسلام هو الرسالة الكونية، وتاريخ وانتشار اللغة العربية هو متلازمة طبيعية لتاريخ وانتشار الإسلام. قبل المباشرة بطرق التأثير العربي في اللغة الإنجليزية، فمن المهم معرفة الحقائق ذات الصلة بالتاريخ العربي الإسلامي من أجل إلقاء الضوء على هذا التلاقح اللغوي العربي – الإنجليزي.

العرب قبل وبعد الإسلام[٢٨١]

كان لعرب قبائل من البدو وعرب الصحاري الرُحّل: كان يُشار إليهم بجراد الصحاري. لم يكن لهم دورٌ يقومون به على وجه الأرض: ولم يكن لهم هويّة خاصة بهم قبل الإسلام، حتى اللغة العربية كانت مُهمّشة ومدفونة تحت لغتي الفرس والروم السائدتين، كونهما مُمثلتين للإمبراطورية الفارسية والرومانية. كذلك فلم يملك العرب عُملة نقدية خاصة بهم: لأن النقد الذي استعملوه في التجارة هي الدراهم الفضيّة الفارسيّة والدنانير الذهبيّة الرومية. في اليمن كانوا خاضعين إمّا للفرس أو للأحباش، وإذا كانت لهم حكومةٌ خاصة بهم فهي في حماية الفُرس. في الشمال: كانت سوريّة خاضعة للحكم البيزنطي، الذي كان إمّا مُباشراً أو بشكل حكومة عربيّة تحت الحماية البيزنطية. باستثناء قلب الجزيرة العربية الذي أفلتَ من الحكم الأجنبيّ لكنه كان في حالة قَبَليّة. وانقسامات حرّمته أن يكون له أي وزن في قوى العالم السياسيّة. الحرب القبليّة كانت لتستمر (٤٠) عاماً أو أكثر! ولكن لم تُعدّ هذه القبائل ذات سطوة في أعين الإمبراطوريتين الضخمتين المجاورتين سواءً على مستوى الأفراد أو المجموعات العربية.

وما حدث من اعتداء (الفيل) من قبل ملك الحبشة عام (٥٧٠) بعد الميلاد. هو تقويم صحيح لقوة هذه القبائل عند مواجهتهم لاعتداء أجنبي لم يقم العرب عام الفيل بأي مقاومة. وإنما خرجوا للجبال وتركوا الأمر لله ليحمي بيته من الأحباش! صار للعرب تحت راية الإسلام، وللمرة الأولى في التاريخ، دورٌ عالميٌ يقومون به. كذلك حصلوا على دولة قوية تحسب لها قوى العالم حساباً. لقد امتلكوا قوة كاسحة دمّرت العروش، وهزمت الإمبراطوريات، واسقطت التيجان الجاهلية المنحرفة الكاذبة لكي تقوم هي بقيادة البشرية. ولكن ما ساعد على هذه الإنجازات للعرب للمرة الأولى في تاريخهم، هو نسيانهم لعصبيتهم العربيّة. لقد نسوا الحزازات العرقية، والتطرف القبليّ، وروابطهم وحدودهم القوميّة. لقد تذكّروا أنهم مسلمون ومسلمون فقط: لقد شعروا أنهم مسؤولون عن حمل رسالة الإسلام العالمية، وحملوا رسالة الإيمان الكليّة القوية، وقدّموها للإنسانية بكل رحمة وشفقة. ولم يلتزموا بأي نوع

من القوميّة أو التحزّبيّة، كانوا المؤسّسين للفكرة الربانيّة التي تعطي البشرية قواعد ربّانية لا أرضيّة للتطبيق في الحياة. وقد تركوا ديارهم وأسرهم للجهاد في سبيل الله وحده، ولم يكونوا يجاهدون من أجل إقامة إمبراطورية عربية لينعموا بحياة الترف والخيال. ولم يكن هدفهم إخضاع الأمم الأخرى لحكمهم بعد تحريرهم من حكم البيزنطيين والفُرس. كان الهدف ما قد حدّده بوضوح (ربعي بن عامر)، رسول المسلمين إلى قائد الفرس، حين قال في مقر قيادة الأخير: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[٢٥٥].

هكذا وبعد ذلك فقط، أصبح للعرب هوية، وقوة، وقيادة. وكلّ هذه وقفوها بإخلاص لله وحده. لقد امتلكوا السلطة والقيادة حين كانوا متّبعين لطريق الإسلام الحقّ. ولكنهم عندما انحرفوا واتّبعوا التحزّب القوميّ الضيّق، وعندما استبدلوا راية الإسلام بالروابط الحزبيّة، سهُل خضوعهم للأمم الأخرى؛ لأن الله هجرهم عندما هجروه واستخفّ بهم حين استخفّوا به. وبالكلمات المختصرة لعُمر بن الخطّاب (الخليفة الثاني في الإسلام)، عندما جاء من المدينة ليفتتح رسميّاً القدس: (نحن العرب أذلّة، أعزّنا الله بالإسلام، فمهما حاولنا العزّة بغير الإسلام، أذلنا الله)[٢٥٦].

وبعد هذا اكتسبت اللغة العربية مكانة عالمية؛ فدُوّنت جميع الدواوين الفارسية في الشرق والدواوين الرومية في الغرب كلها إلى اللغة العربية، تغيّر النقد أيضا تغييرا هائلا؛ فكل قطع النقد الفضّية والذهبية أُذيبت وسُكّت العملة الإسلامية حاملة النقش «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» (انظر الفقرة اللاحقة).

العرب، حملة رسالة الإسلام العالمية[٢]:

كتب هيو كينيدي في كتابه الرائع (فتوح العرب الكبيرة – كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه): (للإسلام تأثير كبير على تاريخ البشرية؛ ففتوح العرب بعد موت النبي محمد ﷺ في ٦٣٢م، قد غيّرت وجه العالم إلى الأبد؛ وصاغت العالم الذي نعيش فيه كلّنا اليوم. في عام ٦٠٠ ميلادي، لم يكن هناك مسلمون. عند موت النبي محمد ﷺ (٦٣٢م)، كان الإسلام مُحدّداً في القبائل الناطقة بالعربيّة، التي تقطن في شبه الجزيرة العربية والحدود الصحراوية لسورية والعراق. لم يعش العرب في مصر أو شمال إفريقيا؛ بينما سورية ومصر شكّلتا جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية النصرانيّة، الناطقة بالإغريقية (اليونانية)؛ والعراق مع إيران كانتا تحكمان من الملوك الساسانيين الزرادشتيين عبادُ النار. ولكن في عقود قليلة، وصل نظام هذا العالم القديم إلى نهايته؛ ففي عام ٦٤١، فتحت جيوش المسلمين العرب سورية، وفلسطين، ومصر، والعراق؛ وفي عام ٧٠٠ شمال إفريقيا جميعه؛ وفي عام ٧٣٠ إسبانية، باكستان، وأكثر آسيا الوسطى. وإنّ جل سكان سورية تكلموا الإغريقيّة أو الآراميّة؛ وجل سكان العراق تكلموا الفارسيّة أو الآراميّة؛ وفي مصر كانوا يتكلمون الإغريقية أو القبطية؛ وفي إيران كانوا يتكلمون اللغة البهلويّة؛ وفي شمال إفريقيا كانوا يتكلمون اللاتينية والإغريقيّة أو البربرية، ولم يكن أحدٌ منهم مُسلماً.

وفي مصر وشمال إفريقيا، الأرض التي نظنّها مسلمة بوضوح، لم يكن فيها مسلمون فعلياً، ولا ناطقون بالعربية. وهذا أيضا صحيح بالنسبة لإيران وأفغانستان. لقد كان المدى وسرعة التحوّل (إلى الإسلام) مُدهشة: فبعد قرن من موت النبي ﷺ تحوّلت كل هذه الأرض والبلاد بما فيها إسبانية والبرتغال، وأزبكستان، وتركمانستان، وجنوب باكستان (السند)، إلى إسلامية يحكمُها صفوةٌ مُسلمة تنطق بالعربيّة، وفي كلّ هذه البلاد كان السكّان المحليّون يتوسلون في سبيل التحوّل إلى الدين الجديد (الإسلام). إن سرعة الفتوح الإسلامية مُحيّرة، ولكن هناك أمثلة لفتوح سريعة عبر أراض شاسعة في تاريخ الإنسانية، قد تكون لحدٍ ما قابلة للمقارنة. فتوح الإسكندر الكبير وجنكيز خان تخطر على البال مباشرة. ولكن ما يجعل فتوح المسلمين العرب مُتميّزة هي ديمومة التأثير الذي تركه

في اللغة (العربية) والدين (الإسلام) للأراضي المفتوحة. أصبحت سورية، والعراق، ومصر، وشمال إفريقيا كلها أقطاراً إسلامية ناطقة بالعربية. وأما في إيران فبالرغم من أن العربية لم تزح اللغة الفارسية القديمة، أصبح الإسلام هو الدين السائد)[٣].

وبالرغم من التحليل الرائع للإسلام فإن الدكتور كينيدي، قد قام بالدراسة من خارج الإسلام مُركّزاً على الشرح المادي الموضوعي لسؤال سرعة انتشار وتأثير الإسلام، ومع هذا فإنني أتمنى بصدق أن يكون الدكتور كينيدي مُسلماً حتى يستطيع أن ينظر للإسلام من الداخل، وحتى يأخذ القرآن والحديث بجديّة أكثر ليكونا مصدرين مباشرين موثوقين للتاريخ لكي يستطيع تحليل الحالة النفسية (التي أحدثها الإسلام) للعرب المسلمين التي نجحت في النهاية إلى النصر. لذا فإن الفصل الآتي سيُلقي بعض الضوء مؤملاً شرح الخلفية الفكرية والروحية (من وجهة عربي إسلامي)، للإجابة عن السؤال:

- لماذا اكتسح الإسلام العالم بسرعة غير مسبوقة؟
- ولماذا كان نفوذه دائماً (باقياً)؟
- ولماذا تأثيره لا يُمحى ولا يُحوّل بوصفه دين، وبوصف مظهره العربي الذي ترك ميراثاً لغوياً باقياً حتى تاريخنا الحالي؟

الحاجة للإسلام؟[٤]

جاء الإسلام ليُجيب الإنسان عن هدف حياته: من أين جاء؟ ولماذا خُلق؟ وإلى أين يذهب (في نهاية المطاف والقدر)؟

يقرر الله (الاسم العربي للإله الرب) أصل الإنسان: أنه هو الذي أنشأ هذا الإنسان من الأرض، ثم أسكنه فيها ليعيش ويستعمرها مدة مُحددة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١).

ويُقرر الله العظيم موقع هذا الإنسان خليفة له على هذه الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

وكلمة خليفة بالعربية: هي أصل (كاليف) بالإنجليزية، وتعني الوكيل عن الله على الأرض، ثم أصبحت لقب حكّام الدولة الإسلامية، مثل: (أبي بكر الخليفة الأول: الذي كان يفضّل تسميته خليفة رسول الله ﷺ). والخلفاء لم لقب رسمي هو أمير المؤمنين: أي حاكم المسلمين.

والله سبحانه وتعالى يبيّن للإنسان أنه لم يُخلق دون هدف: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

لذا فكلّ شيء في هذا الكون مخلوق ومُخطط له من الصانع العظيم؛ ونظرية المصادفة للطبيعة ليست فقط غريبة عن الإسلام، لكنها عبثيّة صمّاء تماماً. فالغباء تسمية الطبيعة (وهي مخلوق من مخلوقات الله) خالقاً! فالله أيضاً يقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤).

وهذا هو أساس النظرية المادية، لكنها ليست علماً بل ظنّ. فلماذا لا تقبل النور من العليم الذي يعلم كلّ شيء. أن الزمن هو بيد الله، فالنبي يُكمّل هذا النص القرآني بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «قال الله تبارك وتعالى: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلّبُ الليل والنهار». صحيح البخاري، الحديث ١٧٧٦. و«أنا

الدهر، هنا تعني «أنا خالق الدهر (الزمن) وأنا أصرّف شؤون جميع المخلوقات بما فيها الدهر (الزمن)» لذلك فلا يجوز للمرء أن يعزو أي شيء جيداً كان أم سيئاً للزمن (الدهر)؛ لأن كل شيء بيد الله وهو الوحيد المصرّف للأمور كلّها.

ثم يبيّن الله أنّ سبب خلق الحياة والموت هو لاختبار وامتحان الإنسان: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

لكن الله العظيم يشرح بوضوح الهدف الحقيقي للحياة: وهو عبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

مصطلح العبادة في الإسلام طيف ألوان الحياة الواسع. فطالما كانت الفعاليات في الحياة منجزة في سبيل الله، فهذه الفعاليات تُعد أشكالاً للعبادة: لذا الأكل/ الشرب الذي يمكّن صاحبه من تأدية واجباته الدينية وصلواته، التمرين للياقة البدنيّة من أجل الحجّ، الكلمة الطيبّة لمساعدة الآخرين، البسمة لتفريج الهمّ، وإماطة الأذى من طريق المارّة، وإطعامُ الزوجة (أو الزوج)، حتى معاشرة الزوجة الحليلة (جنسياً) هي كلها ألوانٌ من عبادة الله. «العمل عبادة» هي مقولة شائعة بين المسلمين وهي واحدة من القيم الإسلامية المهمة. والمؤمنون الذين يعبدون الله سيُكافؤون بالجنّة، بينما الكفار غير المؤمنين سيُعاقبون بنار جهنم.

ثم يُلخص الله تعالى رحلة حياة الإنسان بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (ق: ٤٣).

إن فاتحة القرآن المؤلفة من ٧ آيات[٦] تقدم للإنسانية وضوح الرؤية. فهي تلخّص علاقة الإنسان بربّه؛ وتستحث الإنسان على مدارسة القرآن، وعبادة ربّ الكون، وطلب الهداية. فالمعنى الأولي لكلمة إسلام هو الاستسلام لإرادة الله. والمسلمون يردّدون الفاتحة ما لا يقل عن ١٧ مرة في صلواتهم الخمس اليوميّة:

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(٣) ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

(٤) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(٦) ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ١-٧).

لقد ذكر القرطبي في تفسيره: ٧١ مسألة مهمة في أحكام الإسلام وأصوله مشتقة من سورة الفاتحة مع دروس فضائل ومعاني هذه السورة العظيمة التي سمّيت بحق فاتحة الكتاب وأمّ الكتاب. كما ألف العالم ابن القيم الجوزية كتاباً من ثلاثة مجلدات عنوانه: «مدارج السالكين في إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين»، مما يدل على عظم هذه السورة.

ثم إنّ الله علل تنزيل القرآن كتاباً أخيراً ومحفوظاً محمياً جداً، أنزاله كتباً قبل ذلك للعديد من رُسُله، لكنّ هذه الكتب ولسوء الحظ أُفسدت فأصبحت محرّفة أو مكذوبة. فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

وقد وصف الله الطرائق المختلفة المتبناة من قبل أهل الكتاب في منع وصول الناس إلى الحقيقة والحق. إحداها التلاعب بالحقيقة، أو تلبيسها بألوان الباطل (وذلك بمزج أو تلبيس الحق بالأكاذيب كما في تحرير الطباعة): أنصاف الحقائق غالبا ما تكون أكثر خطرا من الكذب الصريح. وطريقة أخرى هي الإخفاء (التغطية والتعتيم دون إظهار النص المهم)، أو محاولة الكتمان الكامل: الكتمان قد يعني محوا دائما للنصوص مهمة. الطرق الأخرى تشمل تحريف النصوص عبر قراءة مشوّهة (أي تغيير الجوهر أو المضمون)، كتابة فصول (مُدّعين أنها نُزّلت من الله كذبا) مع/ أو رفض (نبذ) جزء من الكتاب أو كله. وقد قاموا بهذا كله لأسباب سياسيّة أو تجاريّة. وهناك حسد لنبي الله الذي يرونه حقيقة أمامهم، فلا يسمحون لمواصفاته المعتمدة في كتبهم ولا لشمائله أن تُعرف أو يشوهوا سمعته، أو يكتموا الحقائق الكفيلة باجتذاب الناس إليه. عندما يقوم أناسٌ بهذه الأهداف المُبيّتة، ضد نورهم (كتابهم هم) («وأنتم تشهدون» — انظر الآية الآتية). فإنهم ينزلون إلى أكثر الأعماق هبوطا. وهم يخسرون أنفسهم أكثر من خسرهم الآخرين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠-٧١].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: (كان رجلٌ نصرانيا فاسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيا، فكان يقول: ما يدري مُحمد إلاّ ما كتبتُ له، فاماته الله، فدفنوه فاصبح وقد لفظتهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ مُحمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا صاحبنا فالقوه، فحفروا له فاعمقوا، فاصبح وقد لفظتهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ مُحمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا صاحبنا فالقوه خارج القبر، فحفروا له فاعمقوا في الأرض ما استطاعوا فاصبح قد لفظته الأرض فعلموا انه ليس من الناس فالقوه) صحيح البخاري، حديث رقم ٨١٤.

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

أما بالنسبة لمحمد ﷺ، فالله يقرر بوضوح أن محمدا هو النبي المنتظر والرسول بعد عيسى عليه السلام، الذي بشّر عيسى نفسه بمجيئه: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧].

إن النبي محمداً ﷺ أظهر الدلائل البيّنة: بل إن حياته كلها من البداية إلى النهاية كانت معجزة هائلة كبرى. فقد حارب كل الظروف الشاذة وانتصر عليها. فبلا تعليم من البشر، كان يُعلّم أرقى أنواع الحكمة. وقد أذاب قلوباً قاسية، وهوى قلوباً ليّنة بحاجة إلى إسناد. وفي أقواله وأعماله كلها رأى أصحاب الفطنة يد الله العاملة في حياته: ومع هذا سمّى الكفار الجهلة كلّ هذا سحراً — سمّوه وهماً ليصبح بعد حين أكثر حقائق التاريخ البشري صدقاً وصلابة!

ثم إن الثناء المتبادل بين النبيين عيسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام)، ويتضح في الحديث النبوي، حيث قال النبي محمد ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاّت أمهاتهم شتّى ودينهم واحد» صحيح البخاري، الحديث ٦٥٢.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكنّ ان ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المالُ حتى لا يقبله احدٌ». صحيح البخاري، الحديث ٤٢٥.

وإن عيسى بن مريم سينزل قائدا للمسلمين. وفي هذا إنذار شديد للنصارى الذين يدّعون أنهم أتباعٌ لعيسى وهو سيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وإذاك ستحتاج البشرية إلى اعتناق الإسلام بلا بديل.

أما فيما يخص نبوءة عيسى عن مجيء محمد ﷺ، فحقيقة أحمد أو محمد هو المحمود وهو الترجمة التقريبية للكلمة الاغريقية (بيريكلايتُس) في العهد الجديد الموجود لدينا عن النص الأصلي بالرغم من تحريفه، هناك نبوءات واضحة عن مجيء النبي محمد ﷺ. فنبوءة محمد ﷺ جاءت في إنجيل يوحنا في الجزء ١٤ (١٦)، الجزء ٥ (٢٦)، الجزء ١٦ (٧): فالمُسلّي (جالب الراحة والخير) المُستقبلي، لا يمكن أن يكون «روح القدس» كما فهم النصارى؛ لأن روح القدس كان موجوداً آنذاك يساعد ويرشد عيسى. الكلمة (مُسلّي) بالإنجليزية هي الترجمة للكلمة الاغريقية (باراكليتوس) التي تعني المُدافع، وهو من ينادي لمساعدة الآخر، والصديق الحميم، بدلاً من «مُسلّي». على كل حال فالكلمة (باراكليتوس) تحوير للكلمة (بيريكلايتُس)، وذلك في الكلام الأصلي للمسيح عند تنبّئه بالنبي أحمد بالاسم. حتى عندما نقرأ (باراكليت) فإنها تنطبق على النبي الكريم ﷺ، الذي هو ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧. وهو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨.

أيضاً في العهد القديم الموجود حالياً، جاءت نبوءة محمد في الثاني الجزء الثامن عشر (١٨)، بسالم (الزبور) ١١٨: ٢٢-٢٣، وارتفاع أمة العرب في اسايا ٤٢: ١-١٣ (خصوصا ١١)؛ لأن كيدار كان ابن إسماعيل، والاسم المستعمل لأمة العرب، كذلك فإن هناك أناجيل أخرى قد اندثرت، لكن آثارها ما تزال باقية، التي كانت أكثر إشارة بما يختص بمحمد، فمثلاً (إنجيل القديس برنابا) له ترجمة إيطالية باقية وموجودة في المكتبة الحكومية في فينا (حُررت في ١٩٠٧ مع ترجمة إنجليزية للسيد لونسديل ولورا راج)

ومن الجدير بالذكر هنا نقل ما قاله يحيى اميريك في صفحة ١٩ من كتابه «ماذا يريد الإسلام؟» المطبوع في كانون الثاني عام ٢٠٠٠، بالكتاب العالمي لآداب الإسلام. (الإنجيل هو كتاب كتبه النصارى واليهود لأنفسهم. والإنجيل البروتستانتي يحوي ٦٦ كتابا داخله، بينما الإنجيل الكاثوليكي يحوي ٧٣ كتابا داخله.

يحوي الإنجيل الواحد فصولاً وآيات لا يحويها إنجيل آخر، وبعضها يحوي كلمات لا وجود لها في الأناجيل القديمة، وعند مقارنتك الأناجيل القديمة، فإنها جميعا تحوي محتويات مُختلفة، حتى في النُسخ الإغريقية والعبرية

واليونيون لهم كُتبٌ مُقدّسة كثيرة ومختلفة ولا يُعلَمُ منْ كتبها. والهندوس لهم كُتبٌ عديدة مليئة بقصص آلهة خيالية وهمية وحيوانات غريبة الأشكال وقصص حرب وفلسفة من الصعب تصديقها على أنها حقيقة.

والقرآن وحده الذي نجا عبر القرون من أي تغيير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر ٩

والمهم أيضاً أن أُناس اليوم لم يفقدوا قابليتهم لقراءته في لغته الأصلية.

فالسنسكريتية لغة كُتب الهندوس هي لغة ميتة (درست). والإغريقية القديمة والآرامية والعبرية لليهود وقدامى النصارى ما عاد يتكلّم بها بالطريقة نفسها اليوم. والكتابات البوذية كُتبت بعدة لغات وليس لها أي صلة بوثائق المصدر الأصلي.

ولكن العربية قد حُنطت وما زال المسلمون يتدارسونها في جميع أنحاء العالم. وليس أسلوب العربية هو اللهجة العامية الدارجة التي يتكلّمها بعض الناس في الشرق الأوسط، بل هي عربية القرآن الصافية: الفصحى أو العربية الصحيحة. لذا فنحن نملك الكتاب الأصلي واللغة الأصلية لقراءته بها. وما من أحد آخر يستطيع قول ذلك البتة.

فالقرآن كله كُتب في حياة النبي محمد ﷺ وقد رُتبت سوره توقيفيا، بوساطة جبريل عليه السلام، بأمر من الله عز وجل. والمسلمون كلهم يحفظونه بهذا الترتيب نفسه.

لدراسة مقارنة مختصرة بين الإنجيل والقرآن يستطيع القارئ مراجعة: عيسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) في الإنجيل والقرآن. ملحق ثمان صفحة ٩٠٧–٩١٧ في ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية. للدكتور محمد تقي الدين الهلالي والدكتور محمد محسن خان. مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم. المدينة المنوّرة، المملكة العربية السعودية. ١٤٠٤ هجري.

ومن الجدير بالانتباه والذكر أن الله تعالى قد أكد ٣ حقائق مهمة عن أهل الكتاب في كتابه المُنزل الأخير: القرآن:

- أن أهل الكتاب يعرفون عين المعرفة أن محمدا هو النبي المُنتظر (بالرغم من أن بعضهم لا يُصرّح بذلك علنا عنادا): ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].
- ان أهل الكتاب يعلمون جيدا أن القرآن هو يقينا وحي إلهي مثل التوراة والإنجيل: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].
- إن أهل الكتاب يعلمون جيداً أن الإسلام هو تتمة الدين القديم في شكله النهائي المُجدد (ممثلا بقبلة مكة): ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

لذلك فإن الربّ خالق البشرية يُذكّر أهل الكتاب برقّة أنهم كانوا مُسلمين معنويا باستسلامهم له قبل وبعد تنزيل هذا القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢–٥٤].

وبناءً على ذلك فإن الله الربّ يدعو أهل الكتاب ليؤمنوا برسالة الإسلام الجديدة كونها الدين الوحيد الرمديّ للواحد الأحد: ومن ثمّ بقور الله لنبوة محمد ﷺ التي جاءت بين العرب، إنها بمشيئته الحرة المطلقة وبفضل منه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨–٢٩].

إضافة إلى ذلك، فإن هذين النصّين القرآنيين المجيدين يتممهما الحديث النبوي بكل جمال: فقد قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون اجرهم مرتين: (١) رجلٌ من اهل الكتاب امن بنبيه وامن بي فله أجران، (٢) وعبدٌ مملوك ادّى حق الله وحق مواليه فله اجران، (٣) ورجلٌ ادّب امتهُ فاحسن تاديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران». أخرجه الشيخان.

وإذا كان محمد نبياً (وهو النبي الخاتم ﷺ يقيناً) وإذا كان محمد هو النبي الذي جاء بعد عيسى (وهو حقاً جاء بعد عيسى كما بشّر به عيسى نفسه)؛ لذا كان لزاماً الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ: فعن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجلٌ من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا كان من أهل النار». سلسلة الأحاديث الصحيحة ١١٢٩ للألباني.

إنّ التشابه بين الإسلام والنصرانية شجّع الأستاذ (بروفيسور) (ريشارد بوليت) لكتابة كتابه الممتاز «الدعوة إلى حضارة إسلامية – نصرانية» المطبوع بمطبعة جامعة كولومبيا في نيويورك ٢٠٠٤.

رسائل النبي محمد ﷺ داعياً ملوك العالم للإسلام:

وإذا كان الربّ واحداً فوجب أن يكون الحق والنور واحداً من هذا الربّ الواحد الأحد (الله). لذلك فالله يخاطب القواسم المشتركة بين الإسلام والنصرانية بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن هذه الرسالة كانت هي فحوى كتاب محمد ﷺ إلى هرقل (قيصر امبراطورية الروم البيزنطيين – كما سيأتي تعريفه).

لذا لم يكن عجباً لحظ أن جميع الحُكّام النصارى أجابوا بالتأييد على رسائل محمد التي حملها إليهم سفراؤه:

- نجاشي الحبشة (أو امبراطور الحبشة) وكان من أعلم الناس بالإنجيل وكان نصرانياً تقياً وحاكماً عادلاً. إلى المسلمين المُضطهدين في مكة قد نصحهم النبي محمد بالخروج في هجرتهم الأولى إلى الحبشة؛ ليعبدوا الله بحريّة دون اضطهاد بسبب عدل حاكمها التقي المؤمن. كما وافق النجاشي أيضاً بتمثيل النبي ﷺ في خطبته لأمّ حبيبة (بنت أبي سفيان) بعد أن صارت أرملة (أو كما تدّعي مصادر أخرى تخلّى عنها زوجها وهي في الحبشة). ويُعيد إبرام محمد ﷺ لصلح الحديبيّة نحو ٦٢٨ ميلادية مع مكة بقليل، أرسل محمد ﷺ رسائله لجميع حُكّام العالم آنذاك. ونجاشي الحبشة أسلم مباشرة عند تسلّمه رسالة النبي ﷺ.
- المقوقس: حاكم مصر (الجناب الرومان) أبدى احتراماً كبيراً لكنه لم يرغب بالقتال أو الإسلام؛ فأرسل للنبي ﷺ عدة هدايا تشمل ماريّة القبطية وأختها مع حمار وبغلة وحصان إضافة إلى ثياب مصرية وألف مثقال ذهب.
- هرقل (الإمبراطور البيزنطي). حسب السجلّات التاريخية الأكثر توثيقاً فإن الإمبراطورية الرومانية قد دُحرت في فلسطين وفقدت جُلّ الأقاليم الآسيوية للإمبراطورية الفارسية؛ وحُرقت القُدس وسُلبت، وذُبح النصارى بالجملة، وحُرقت الكنائس، وحُمل الصليب (الذي يعتقد النصارى أن المسيح قد صُلب عليه) إلى فارس. واحتفل وثنيّو مكة بهزيمة الروم أمام الفرس. بينما حزن المسلمون في مكة (و كانوا ضعفاء آنذاك) لأنهم يعدّون الروم أهل كتاب، وهم يصنفون أنفسهم (أي المسلمين) مع أهل الكتاب. وبيّنت القرآن بإعجاز وجمال أن الروم سوف يدحروا الفرس قريباً في «بضع سنين» (سنوات قليلة بين ٧–٩):

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٢-٦].

وبالفعل. فإن أخبار انتصار الروم البيزنطيين على الفرس جاء بعد ٧ سنوات في معركة «أيسوس» في ٦٢٢، (عام الهجرة النبوية) وفي ٦٢٤، عندما قام هرقل بتعزيز حملته العسكرية ودفعها إلى قلب فارس (في العم

الذي هزمت فيه قريش مكة أمام المسلمين في معركة بدر). وأعاد هرقل كل الأقاليم التي خسرها، و حتّفل بانتصاره هذا في القسطنطينيّة في آذار ٦٢٨. ومن ثمّ كان صلح السلام بين الامبراطوريتين على أساس الوضع الراهن السابق. ولإيفاء نذر نذره هرقل ذهب في الخريف إلى حمص مركز قيادته. ومنها سار هرقل على قدميه إلى القدس ليصلي في المدينة المقدّسة. وليحتفل بانتصاراته. وليُعيد الصليب المقدس إلى موضعه بعد استرجاعه كأحد شروط السلام بعد أن انتزعه الفرس. وكان طريق هرقل مكسوا بالزرابيّ بلاطة الثمن (أي السجّاد)، وكانت الأعشاب المعطرة تُنثرُ على الزرابيّ. وفي مدينة القدس (أواخر عام ٦٢٨م) تسلّم هرقل رسالة النبي الكريم محمد ﷺ يدعوه للإيمان الحقّ المجدد والمتمثل بالرسول الحي في زمانه ذلك. هرقل اضطرب ولكنه أخذ الأمر بجدّية: فقابل وفداً عربيا (حدث أن زار القدس في مهمة تجارية يقوده أبو سفيان، رأس العرب وهو عني أرستقراطي من مكة والذي لم يُسلم بعد في المدة بعد صلح سلام الحديبية نحو ٦٢٨م، المعقود بين المسلمين ومشركي مكة). ثم قام هرقل بتحقيق فكري مثير جداً ومقابلة غاية في الذكاء مع أبي سفيان (مُستعملاً الاستعلام بأسئلة مُغلقة غالبا ومحددة جدا تنتهي بالإجابة بنعم أو لا، قام عبرها هرقل بطرح (١١) سؤالا ومنها استخلص أن محمداً هو النبي المنتظر ﷺ.

فقد روى ابن عباس... أن ابا سفيان أخبره أنّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجُمانه فقال: ايكم اقربُ نسبا بهذا الرجل الذي يزعم انه نبيٌّ؟ فقال: أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا فقال، ادنوه منّي، وقربوا اصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائلٌ هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه. فو الله لولا الحياءُ من ان يؤثروا عليّ كذباً لكذبتُ عنه. ثم كان أ ل ما سألني عنه أن..

١. قال كيف نسبه فيكم؟
قلت هو فينا ذو نسب.
٢. قال فهل قال هذا القول منكم احدٌ قطّ قبله؟
قلت لا.
٣. قال فهل كان من آبائه من ملك؟
قلت لا.
٤. قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضُعفاؤهم؟
قلت بل ضُعفاؤهم.
٥. قال. أيزيدون أم ينقصون؟
قلت بل يزيدون.
٦. قال فهل يرتد أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟
قلت لا.
٧. قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
قلت لا.
٨. قال فهل يغدر؟
قلت لا. ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها. قال ولم تُمكنّي كلمةٌ أُدخلُ فيها شيئاً غيرُ هذه الكلمة.

٩. قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

١٠. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحربُ بيننا وبينه سجالٌ، ينال منّا وننالُ منه.

١١. قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول اعبدُوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقولُ آباؤكم. ويأمُرُنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة.

فقال للترجمان: قُل له

- سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.
- وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلتُ لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلت رجلٌ يأتسي بقول قيل قبله.
- وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلتُ فلو كان من آبائه من ملك قلت رجلٌ يطلب مُلك أبيه.
- وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.
- وسألتك اشرافُ الناس اتبعوه أم ضُعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضُعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرُسل.
- وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتمّ.
- وسألتك أيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشتُه القلوب.
- وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرُسُل لا تغدر.
- (وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت نعم وإن الحرب سجال بينكم وبينه، ينال منكم وتنالون منه. وكذلك حال الرُسُل يُختبرون حتى يكون النصر النهائي لهم).
- وسألتك بما يأمرُكم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين وقد كنت أعلمُ أنه خارجٌ ولم أكن أظنّ أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به (دحية الكلبي سفير النبي ﷺ) إلى عظيم بُصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على مَنِ اتّبعَ الهُدى أما بعدُ: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]).

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثُر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا. فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلتُ موقناً أنه سيظهرُ حتى ادخل الله علي الإسلام.

قال الزهري: فأدّن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلّقت، ثم اطّلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وان يثبت مُلكُكم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الايمان قال: رُدّوهم عليّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفا اختبرُ بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي.

ويُقال إن هرقل مكان كهانا ينظر في النجوم (مُنجّما) فرأى أن ملك الختان قد ظهر: فسألهم عن ذلك، قالوا: لا يختتن إلا اليهود، ونصحوه بقتلهم جميعا. فبينما هم على أمرهم جاءته رسالة النبي محمد ﷺ فسألهم هرقل ليتظروا أمُختتنٌ سفيره العربي؟ فحدثوه انه مختتن. وقيل له: إن العرب يختتون. فقال هرقل متشائماً: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

وقد أرسل هرقل إلى صاحب له برومية (روما)، وكان نظيره في العلم، فكتب له بعد ذلك يوافق رأي هرقل على خروج النبي محمد ﷺ وأنه جاء زمانه. إن هرقل وضع كتاب النبي محمد ﷺ في قصبة من ذهب تعظيما له، وما زالت الرسالة متوارثها أباطرة وملوك الروم منذ ذلك الحين (بالرغم من عدم إفصاحهم بذلك علنا أمام رعاياهم النصارى؟). والاحترام المتبادل بين النبي محمد ﷺ وهرقل كان خاصا لا سيّما عند مقارنته بكسرى امبراطور الفرس (الذي مزّق كتاب النبي محمد ﷺ). فبعد تسلّم رد إمبراطوريي الروم والفرس قال النبي محمد ﷺ:

«ثبّت الله مُلكه (إلى حين)» فيما يخص هرقل، لكن فيما يخص كسرى قال: «مزّق الله مُلكه». والأحداث التاريخية اللاحقة أكّدت نبوءات محمد ﷺ عندما قُهرت الإمبراطورية الرومانية وقوّضت وتحجّمت إلى القسطنطينية (أو بيزنطية)، لكنها بقيت على قيد الحياة؛ في حين أن الإمبراطورية الفارسيّة قُهرت وأزيلت تماماً من وجه الأرض في خلافة عمر بن الخطاب.

إن هرقل في أثناء تحقيقه الذكي جداً بوصفه طرفاً ثالثاً، وثّق أن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر. وراودت هرقل فكرة اعتناق الإسلام بل ناقش ذلك مع قادته، لكنهم اضطربوا ورفضوا؛ فاضطر هرقل لرفض الإسلام علنا، إن عظمة امبراطوريته الظاهرية وتكبّر قومه منعاه من قبول رسالة الله المُجدّدة بحرية. ففضّل هرقل مركزه الإمبراطوريّ الدنيوي، ولذلك بقي نصرانيًا. ومع ذلك فإنه كتب رداً غاية في اللباقة (الدبلوماسية) إلى النبيّ محمد ﷺ قائلاً: (إني مُسلم) وبعث إليه بدنانير ذهبية فقال رسول الله ﷺ عند تسلّمه كتاب هرقل: (**كذب، ليس بمسلم وهو على النصرانية**). وقسّم النبي ﷺ الدنانير الذهبية (بين أصحابه). رواه أحمد بن حنبل وابن حبّان، كما جاء في **زاد المعاد** لابن قيّم الجوزية صفحة ٤٥-٤٦، كذلك **فتح الباري** شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ج١، صفحة ٣١-٤٥.

والتاريخ أثبت قول النبي محمد ﷺ:

- الأحداث اللاحقة في الجبهة الشمالية للجزيرة العربية تمثّلت في مقتل ١٤ من ١٥ مبعوثاً مسلماً مُسالماً؛ وفي الوقت نفسه قُتل سفير مُسلم اخر على يد حاكم بُصرى (سورية) ورئيس قبيلة الغساسنة حليف الروم. والخطر من سورية الرومانية تزايد بوضوح؛ إن قتل السفير الذي جاء يحمل رسالة بسلام كان دوماً يعد

إهانة عظيمة لا بد من تقويمها[٨] فاضطر المسلمون لقبول التحدي والرد، وهكذا كان الصدام الأول بين المسلمين والعالم الخارجي في **معركة مؤتة** (قرب الكرك في الأردن) في أيلول عام ٦٢٩ م، التي انتهت بالانسحاب الثنائي للمسلمين والروم وجيوشهما بالرغم من عدم التكافؤ بينهما: (٣٠٠٠) مقاتل مسلم بوجه (٢٠٠٠٠٠) مقاتل رومي مع القبائل العربية الحليفة بقيادة هرقل نفسه. وبالرغم من اختلاف الآراء عن نتيجة المعركة فإن المصادر الموثوقة تعدّ قتلى المسلمين بما لا يتعدى ١٢ شخصاً، (لكن يشمل الأمراء القادة الفرسان الشجعان المتعاقبين على هذه الحملة) إلى أن أخذ زمام القيادة القائد الأكثر مراساً الجنرال خالد بن الوليد، وبعد مُنازلة منقطعة النظير يقال فيها: إن خالداً قتل ما لا يقل عن ٥٠٠ رومي وكسّر ٩ سيوف بيده من الضرب. وبعد ذلك وفي حكمة خالد العسكرية وهو أستاذ الإستراتيجية (أي براعة تدبير) الحرب استبدل الجناح الأيمن بالجناح الأيسر وبادل المؤخرة بمقدمة الجيش ونظّم مجموعة من المقاتلين في المؤخرة تسحب سعف النخيل لإثارة غبار الصحراء في الأفق للتمويه بقدوم إمداد عسكري للمسلمين. وعند رؤية الرومان لوجوه جديدة وبعد تمارين التحركات هذه انسحبوا، ثم إن الجنرال خالداً أيضاً سحب جيشه كاملاً (إلاّ من ١٢ شهيداً). وفي الحقيقة، وقبل رجوعهم للمدينة بشهر واحد (المسافة بين المدينة ومؤتة مسيرة شهر على الأقل)، كان رسول الله (محمد ﷺ) قد وصف بإعجاز وصفاً دقيقاً رأي العين لهذه المعركة مباشرة في أثناء وقوعها وصفها للمسلمين في المسجد النبوي بالمدينة:

عن أنس رضي الله عنه «إن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم فقال: **(أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب — وعيناه تذرفان — حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)**. صحيح البخاري، الحديث رقم ٤٢٦٢.

وعند رجوع جيش الصحابة إلى المدينة بقيادة خالد أكّدوا صحة رؤية النبي ﷺ: فالأشياء حدثت بالضبط كما قال لهم، وإن الصحابة الثلاثة قد قُتلوا وهم يقاتلون بضراوة: وهذه كانت دلالة إضافية لصحة نبوّة محمد ﷺ ثم إنه عندما نعت صِبيان المدينة الجيش العائد (أنتم الفرّار)، صحّح النبي مقالتهم بقوله: «**بل الكرّار إن شاء الله**». ومن ثمّ قام النبي محمد ﷺ بتهيئة خالد ليكون واحداً من قادة جيش المسلمين في الفتح الأكبر لمكة.

- تسلّم النبي ﷺ معلومات استخبارية أن بعض القبائل الشمالية تتهيأ لحملة شاملة لغزو المدينة. فقام بتعبئة ٣٠٠ رجل بقيادة عمرو بن العاص، الذي تربطه أواصر أسرية ببعض قبائل الشمال؛ وطلب منه النبي ﷺ دراسة الوضع وأن يعلمه بمستجدّات الأمور، كما أمره بالتحالف مع أقصى ما يمكن من القبائل، ومن ثمّ أرسل النبي ﷺ أبا عبيدة قائداً لـ ٢٠٠ صحابي إضافي (وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب)؛ لأن المقاومة المعارضة قد تبدو أقوى من المتوقع ولكن لم تكن الحالة كذلك واستطاعت هذه القوة الإسلامية (٥٠٠ مقاتل) من الوصول للأرض السورية، وتدعيم التحالفات القائمة، وتعزيزها بتحالفات جديدة أسهمت في تأمين هذه الجبهة التي كانت فيلاً غير مأمونة. هذه الحملة الاستكشافية الناجحة سُميت «**ذات السلاسل**» نسبة إلى بركة ماء في أرض جُذام.
- ثم إنه عند اعتناق الحاكم الروماني في مَعَان الإسلام (وهو عربي يُدعى فروة بن عمرو الجُذامي) قام الرومان بسجنه وصلبه وقتله.
- كذلك، فإن هرقل أقام صلات حميمة مع منافقي المدينة من المسلمين عبر أبو عامر (الملقب بالراهب الذي سمّاه النبي ﷺ أبو عامر الفاسق) الذي قاتل المسلمين في معركة أحد، ومن ثمّ هرب من المسلمين إلى حصن هرقل وحمايته. وقام هرقل بحثّ المنافقين لبناء مسجد المعارضة كوكر للتجسس ووعدهم هرقل بقدومه

مع جيش روماني كبير لغزو المدينة. وهؤلاء المنافقون دعوا النبي محمداً ﷺ للصلاة في مسجدهم. لكن جبريل أخبره أن لا يُصلي فيه. ومن ثم أمر النبي محمد ﷺ أصحابه بحرق المسجد هذا. والله تعالى يوثق (مسجد الضرار) هذا في القرآن:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

- وردًا لأخبار التهديد والإنذار أن جيش الروم قد تهيأ لغزو المدينة: عبأ النبي محمد ﷺ أواخر آب أو أيلول ٦٣١ م، أكبر جيش عربي مؤلف من نحو (٣٠٠٠٠) مقاتل مسلم في غزوة تبوك (التي حُضّر لها علناً في فصل الصيف الحار) وسار به النبي ﷺ إلى التخوم البيزنطية. فقام الجيش الروماني بقيادة هرقل بالانسحاب دون قتال، بينما أقام جيش المسلمين في تبوك مدة عشرين يوماً، وبعد تحالفات مع القبائل النصرانية (التي وافقت على دفع الجزية لقاء حماية المسلمين لها من الروم)، قفل جيش المسلمين راجعاً إلى المدينة دون قتال.

وهكذا وبعد أقل من ٥ سنوات لاحقة (وبعد وفاة النبي محمد ﷺ في ٦٣٢م)، شهد هرقل وجيوش إمبراطوريته الرومانية البيزنطية الجرارة مجيء الإسلام على عتبات دورهم؛ والحقيقة أنه قد زارهم جيش مسلم صغير جداً بالمقارنة معهم ودحرهم في معركة اليرموك الفاصلة في ٦٣٦م، حيث انتزع المسلمون منهم جناح الإمبراطورية الرومانية المتوسطي الشرقي المحتل والذي ظلّ بعدها بيد المسلمين إلى الأبد، وبعدها صارت الإمبراطورية الرومانية مجرد ظلّ مع مقاطعة أرض صغيرة تحيط بعاصمتها القسطنطينية.

مواصفات القرآن الفريدة

لذلك أصبح القرآن منارة النور الهادي الوحيدة (الحق الخالص غير المخلوط بأي كذب)؛ لذا كان تشديد الله المستمر على أهمية القرآن، فقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال النبي محمد ﷺ: (خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه) رواه الستة إلا مسلم. والقرآن كتابٌ يتمتع بعدد من المواصفات الخاصة به وحده، وإليك بعض هذه المواصفات وهي كما يأتي:

١. القرآن الكريم صدقاً هو كلامُ الله حقيقةً، مُنزّلٌ غير مخلوق، أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ويؤكد الله أن العربية هي اللغة التي اختارها للتنزيل، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقد أنزله الله عبر رأس الملائكة جبرائيل إلى محمد ﷺ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٢-١٠٣].

وأن محمداً ﷺ قد اصطفاه الله عز وجل عمداً وانه أميٌ معروف (لا يقرأ ولا يكتب)، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وقال جلّ وعلا: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٦).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨).

القرآن حقاً كان معجزة النبي محمد ﷺ الأبدية الكبرى، وخلافاً لجميع الأنبياء الآخرين استمر (القرآن) بعد موته ﷺ ليكون مغناطيس جاذبيّة واستلهاماً للبشرية، مما أدّى إلى تحوّل اعداد كبيرة من الناس للإسلام جيلاً بعد جيل، وبعد مدة طويلة من وفاة النبي محمد ﷺ. وقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (**ما من الأنبياء نبيٌ إلا أعطي من الآيات ما مثله امن عليه البشر، وإنما كان الذي اوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فارجو ان اكون اكثرهم تابعاً يوم القيامة**). صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٧٩.

وشهد جلّ صحابة النبيّ ﷺ بأعينهم الوحي عندما يصبح النبي ﷺ ساكتاً وصامتاً (لكنّ شفتيه تتحركان) وكان جميعهم يسمع صوتاً كأزيز النحل. هذا إضافة إلى أن الكثير (بمنّ فيهم عمر بن الخطاب الخليفة الثاني) قد رأوا جبريل على هيئة رجل لم يروه من قبل البتة.

ومعجزات النبي ﷺ عديدة وقد شُهدت بالعين جميعها من قبل الصحابة، فمثلاً الماء المتدفق بين يديه وأصابعه شوهد مرات عدة وفي الصيف الحار في صحراء الجزيرة العربية. فإنه شوهد مرة من قبل ٨٠ صحابياً، ومرة من قبل جميع الذين شهدوا صلاة العصر؛ ومرة من قبل ٣٠٠ صحابي الذين شربوا كلهم وتوضؤوا للصلاة منه. في الحديبيّة كان هناك بئر واحدٌ فقط وكان جافاً. فجلس النبي ﷺ على حافة البئر وتمضمض ثم مجّ فيه، فغمر البئر بالماء بعد ذلك (شهد هذه الحادثة قرابة ١٤٠٠ صحابي). وأيضاً في صلاة جمعة وبعد فصل الصيف الحار الطويل، جاء رجلٌ يتوسل للنبي ﷺ أن يسأل الله ان ينزل المطر. فاستجاب النبي ﷺ له مباشرة بدعاء إلى الله، وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى هطل ماء المطر بكثرة طوال أسبوع فجاء الرجل الجمعة المقبلة صارخاً: يا رسول الله لقد غرقنا، فبدأ الآن النبي ﷺ يدعو الله: (**اللهم حوالينا ولا علينا، واللهم على الآكام والجبال والظراب ومنابت الشجر**) وهكذا شهد جميع صحابة المسجد النبوي (بأعداد تصل عدة آلاف) بأعينهم انجياب السحاب وتكشفه عن المدينة حتى أحدق بها كالأكليل (تمطر حولها ولا تمطر بالمدينة قطرة).

وفي غزوة تبوك (أضخم غزوة في تاريخ الجزيرة العربية)، أصابت الناس (وهم ٣٠٠٠٠ جندي) مجاعة بسبب نفاد الزاد المحمول في هذا المسير الطويل بالصحراء في موسم الصيف القائظ، فاستأذنوا النبي ﷺ بنحر بعض نواضحهم (من الفرس والنوق)، فتدخّل عمر بن الخطاب متسائلاً: يا رسول الله كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً؟ إن فعلوا قلّ الظهر ولكن ادعهم بفضل ازوادهم وادعُ الله لهم فيها بالبركة لعلّ الله أن يجعل فيها البركة، فقال رسول الله: «**نعم**» فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكفّ ذرة، ويجيء الآخر بكف من التمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم: «**خذوا في أوعيتكم**» فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في

العسكر وعاء إلا ملؤوها وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة. فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبدٌ غيرُ شاك فيحجب عن الجنة» رواه مسلم والإمام أحمد. وهذه الحادثة شاهدها بالعين ٣٠٠٠٠ جندي مسلم في هذه الغزوة.

كما تنبأ النبي ﷺ (بما أخبره الله بوساطة جبريل) عن السقوط المستقبلي والنهاية لكلٍّ من الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية على أيدي المسلمين! وهكذا كان في عام ٦٤١ م. كما تنبأ النبي ﷺ بعد أقل من عقد من وفاته (في عام ٦٣٢ م). كذلك فإنه تنبأ بالتخصيص سقوط القسطنطينية استثنائياً على أيدي جيش مسلم متميز بقيادة "أمير متميز"؛ وهكذا كان في عام ١٤٥٣ م. كما تنبأ النبي ﷺ بعد أكثر من ٨ قرون على يد السلطان محمد الفاتح، مع جيشه العثماني، أعظم آلة عسكرية في التاريخ. (كما قرر ذلك بعض المؤرخين).

٣ القرآن جاء برسالة عالمية للمخلوقات كلها: البشرية، والجنّ، وكل ما في الكون وسماواته وأرضه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١).

وإنّ موسى وعيسى قد أرسلا خصوصاً لبني إسرائيل: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٢). ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ (الصف: ٦). ولكن بالناصية الأخرى فإن محمداً ﷺ قد أرسل إلى البشرية كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨).

إن رسالة الإسلام العالمية تمتد إلى العالمين أو العوالم جميعهم (من كل المخلوقات من إنس وجنّ وكلّ ما هو موجود)؛ ذلك لأنّ النبيّ محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء وبه تختم النبوّة فقال تعالى في ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ولذلك فإن الإسلام يربط المسلمين ببيئتهم المحيطة: كونهم جميعاً مخلوقات الله فعليهم أن يتعاونوا مع الطبيعة كونها مخلوقاً من مخلوقات الله أيضاً. لهذا ففكرة «الصراع ضد الطبيعة» غريبة على الإسلام. وبدلاً من ذلك، فالله ينصّ بوضوح على «تسخير الطبيعة لخدمة الإنسان»، وبناءً على ذلك فمفهوم «الصراع» يجب الاستعاضة عنه بـ «استخدام الطبيعة وتوظيفها» من الإنسان المؤتمن من قبل الله خليفةً على الأرض، موكول له مسؤولية الطبيعة أو البيئة؛ لاستثمارها وتنظيمها وإدارتها، للسيطرة على البيئة بأفضل الطرق الممكنة. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٢-١٦).

وكذلك فإن فكرة «ماما الطبيعة» أو «فعل الطبيعة» هما مفهومان غريبان عن الإسلام. وحين تخرج الطبيعة (في ذاتها مصطلحاً شاملاً للعديد من مخلوقات الله، ففي قاموس الفيروزآبادي تعرّف الطبيعة أنها الخليقة) عن سيطرة الإنسان، فذلك يُفسّر إسلامياً على أنه «فعل الله» أو «الجزاء الإلهي» أو عقاب جزئيّ ابتُلي به بسبب ظهور الشرّ الممثل بالذنوب ومعصية الله، يفسر ذلك قول الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

وتؤيد الأحاديث النبوية الصحيحة هذا المفهوم الإسلامي من أنّ انتشار الذنوب هو سبب التوازل (المسماة بالكوارث الطبيعية) وسبب قلة الأرزاق (تضييق البركة في الرزق لا الحرمان في أصل الرزق: لأن الرزق لا تزيده الطاعة، ولا تنقصه المعصية؛ حسب أحاديث أخرى)؛ سواءً كان ذلك على المستوى الفرديّ، أو على المستوى الجماعيّ. عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يردُّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ**». رواه الإمام أحمد في مسنده. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ قال: «**إذا ضنّ الناسُ بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة (الربا)، واتبعوا أذناب البقر (اهتموا بالزراعة أي بالدنيا المادية فقط) وتركوا الجهاد في سبيل الله: أنزل الله بهم بلاءً، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم**». رواه الإمام أحمد في مسنده ولفظ أبي داود للحديث: (**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**). والحديث أخرجه أيضاً الطبراني وابن القطان وصححه.

بل إنّ انتشار الفواحش هي من أسباب سقوط الحضارات أيضاً: قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦). فالماء هو أصل قيام الحضارات في العالم: مثل: حضارة وادي الرافدين (دجلة والفرات)، وحضارة وادي النيل، وغيرها في الهند والصين ممن قامت على ضفاف الأنهار.

فكان عدم الاستقامة على طريق الإسلام سببٌ في تضييق الأرزاق وتقويض الحضارات؛ بل إنّ التوازل من بأساء (كالفقر وضيق العيش) وضرّاء (كالأمراض والأسقام والآلام) يجب أن تكون داعياً للرجوع إلى الله تعالى، وقد تكون وفرة الأموال والأولاد والأرزاق للظالمين الذين لا يرجعون إلى الله، هي فتنة استدراج لهم في هذه الدنيا، قبيل استئصال حضارتهم المنحرفة: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنعام: ٤٢-٤٥).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (**يا معشر المهاجرين! خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن:**

١. **لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا،**
٢. **ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم،**
٣. **ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا،**
٤. **ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم،**
٥. **وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله يتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**). رواه ابن ماجه واللفظ له، ورواه البزار والبيهقي، وذكره الحافظ المنذري في الترهيب من بخس الكيل والوزن.

٣. **يتميز القرآن بالشمول والكمال ليكون منهج حياة**: لذلك فالانفصام بين الحياة والدين، أو العلمانية التي تفصل الحكومة عن الكنيسة في النصرانية هي غير معروفة تماماً في الإسلام؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

ونقرأ في موضع آخر قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧).

٤. **وهو كتابٌ نظري وعمليّ**، فإنه نزل بأوامر الله للعمل بها ونواهيه لاجتنابها ثم إنه أُنزل للتعبد به وتلاوته طلباً للأجر وحصول الثواب، فهو **كتابٌ للعمل** (كان صحابة النبي ﷺ يحفظون كل آية من القرآن، فيعملون بها، ثم يتحولون لحفظ الآية التي بعدها). أهمية فهم رسالة القرآن لا بد منها وهي كأهمية التلاوة. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر: ٧).

٥. **إن الله سبحانه وتعالى أكمل به الدين للناس كافة**... فقال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

لذلك فالنبي محمد ﷺ هو خاتم النبيين ومعجزته (أي القرآن) تشمل رسالات التوحيد الأخرى قبله كلها. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٣-٨٥).

ولذلك كان القرآن حارساً لكل الكتب التي أُنزلت قبله (قبل أي تحريف) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٤٨).

٦. **القرآن معجزة الله الخالدة والرسالة المنزلة على النبي محمد ﷺ على مرّ الأزمان والعصور وحتى يوم القيامة.**

ولمن شكّ في نظم هذا القرآن فإن الله العظيم قد تحدى أكثر العرب فصاحةً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو سورة واحدة تشبه القرآن، ولكنهم حتى يومنا هذا عجزوا عن ذلك. إنّ نُقّاد القرآن قد صُعقوا بالخرس أمام بلاغته التي لا توصف وجماله الأخّاذ.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨). ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣). وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨).

فعندما قام مُسيلمة الكذاب بإخراج روايته من القرآن الكاذب، أدرك العرب وبسهولة أنه مهزلة من صنع البشر ولا يمكن أن يكون من مصدر إلهيّ. وقد عُدّ مرتداً ودُحر تماماً بجيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد؛ ومن ثمّ قُتل مسيلمة الكذاب وقُطع رأسه.

كذلك فإن الغزو الأمريكي للعراق في آذار ٢٠٠٣، جلب معه الديمقراطية المزعومة، ومعهم قرآن جديد يُدعى (الفرقان الحق) المُحرر من قبل (المهدي) عضو في مشروع (أوميغا ٢٠٠١)، (مكتوب بالعربية ومترجم إلى

الإنجليزية من قبل مبشّر نصراني عربي هو أنيس شوروش) بوصفه بديلاً للقرآن الكريم وأداة للتبشير، بسبب فشل البعثات التبشيرية وعدم النجاح للوصول إلى العالم الإسلامي عبر استخدام الطب والمدارس والكتب والأقلام والطرق الأخرى (باعتراف الناشر).

وهذا القرآن الجديد وزّع أولاً في الكويت ووصف أنه آيات الشيطان... بعد توزيعه على أطفال الكويت في المدارس الإنجليزية الخاصة! وهذا القرآن الكاذب هو كتاب من ٣٦٨ صفحة وفي ٧٧ سورة، مثلاً: السلام، المسيح، ثالوث الرّب، الصلب، النساء، الصيام، والصلاة. كل سورة تبدأ «باسم الأب، الكلمة، روح القدس، الرب الحق الواحد الأحد». وهو يقرر أن الجهاد مُحرم؛ بل يتعدى على الله سبحانه وتعالى. وهدف الكتاب هو تقديم الإنجيل النصراني للعرب في نثر وأسلوب شعري للغة الكلاسيكية للقرآن العربي (كما يدّعون) الفرقان الحق يُدعى أنه كُتب في (٧) أيام بادعاء من استلهام الصافي، بينما تسلّم محمد وحي القرآن في (٢٣) سنة. وهذا يعني بالضرورة الكثير من النسخ واللصق الإلكتروني مع مزج ولحم النصوص المختزة من مصادر بشرية (لا إلهية) خليطة.

ولكن كل من يقرأ النسخة الأصل أو الترجمة الإنجليزية سيرى أن هذا الشيء لا يمتلك النظام ولا الأسلوب ولا الثقة ولا محتويات فريدة في كتابه الأصل.

إنه محاولة يائسة لإيجاد طريق ما لتنصير المسلمين لأن العديد من مئات السنين من الجهود المتكاتفة لم تأت إلا بنجاح ضئيل. إن هذا القرآن المسخ هو مهزلة من صنع البشر يكون مالها سلّة التاريخ للأوراق المهملة والقمامة. والموقع الإلكتروني في الشبكة العنكبوتية سرعان ما هوجم من قبل المسلمين وغير المسلمين على السواء، مما أدى إلى رفع الموقع من خطوط الشبكة العنكبوتية.

وكل الدول الإسلامية رفضته، بل حتى حكومة الهند منعت الكتاب من دخوله للهند رقم ٧٨/ ن ت (٧ أيلول ٢٠٠٥): (الحكومة المركزية وللحفاظ على السلام في الهند، تمنع مُطلقاً استيراد الكتاب المُسمى «الفرقان الحق» والمدعو «قرآن القرن الحادي والعشرين» المطبوع في الولايات المتحدة الأمريكية منه أو أي طبعة أو ترجمة أو أي وثيقة تستنسخ أي شيء من قبل أوميغا ٢٠٠٠ ومطبعة الخمر، بما يشمل (منع) أي مقتطفات منه).

٧. **إنه أنزل لإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له (التوحيد):**

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ (هود: ١-٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥).

أحد المعاني الضمنية لوحدانية الله هو مُساواة كل البشر أمام الخالق الواحد الأحد. فلذلك لا تفوّق لأحد الأجناس ولا تدني لجنس آخر إلا بالتقوى؛ ولا يحق شرعاً لأي قوة بشريّة عُظمى ولا تفويض لها كي تستغل، أو تستبعد، أو تُسيء للضعيف أو الأضعف من الأمم وكأنها الربّ بسبب إيمانها أن (القوّة هي الحق).

فمهما بلغت القوة والعظمة اللتان يبلغهما الإنسان ويجمعها، فهناك دوماً الله الأكبر وصاحب القوة المطلقة فهو العظيم المذلّ المُعز. ونتيجة أخرى لهذه المساواة هي إخوة ووحدة الأمة المسلمة وهي الأسرة الكونية الكبرى.

المعنى الضمني الآخر لوحدانية الله (التوحيد) هو أن الله هو الحاكم المطلق لهذا الكون، المدبّر لشؤون الملك وهو ملك الملوك كلهم: لذلك فهو مُشرّع القوانين الشرعيّ الوحيد للبشرية، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠).

ولذلك فكلّ الملوك والحكومات والأمم والأفراد مسؤولون أمام صاحب الجلالة (الله) في هذه الدنيا وفي الآخرة.

والمعنى ضمني للتوحيد هو الإيمان بالله وحده، ضامناً لنصر المسلمين (انظر أسفل الصفحة). الإيمان بالقدر خيره وشره هو ركنٌ مهم في الإيمان الإسلامي. وكلا الإيمانين هذين (الإيمان بنصر الله وبقدره) هما مسؤولان عن الانتشار السريع للإسلام من قبل مُسلمين حريصين على القتال والموت لنشر رسالة الله العالمية، شديدي الفرح للوصول لهذا الهدف الكبير.

٨. لأنه منهجٌ متكاملٌ لجميع شؤون الحياة الروحيّة والعقليّة والسياسيّة والاجتماعية والاقتصادية فهو منهجٌ قابل للتطبيق في كلّ زمان ومكان وأمّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

٩. إن الله قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم كلّه وإلى الأبد من كل تغيير أو تحريف كما يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وقد حُفظ القرآن الكريم بغاية من الإتقان في الصدور والسطور كما أنزل على رسولنا محمد ﷺ، ولم يتغير ولم يتبدل ولا كلمة واحدة منه على مرّ الأزمان، وهكذا يبقى إلى أبد الآباد بإذن الله تعالى.

١٠. لما كان القرآن رسالة الله الخالدة الحقّة، فإنه يُظهر معجزات علميّة عدة وبذلك يدمج العلم بالدين. لذلك، فإن في العالم الإسلامي مشاهير العُلماء والأطباء هم مسلمون أتقياء أيضاً: كُتُبُهم دوماً تبتدئ بحمد الله (ربّ السموات والأرض وكل ما بينهما) مع الصلاة عن النبي محمد ﷺ. الفصام النكد الأوروبي بين العلماء ورجال الدين غريبٌ على المسلمين؛ وانفصال العلم عن الكنيسة غير معروف ألبتة في العالم الإسلامي. الله تعالى يقول:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٨).

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر: ٩).

وإن أول الآيات المُنزلة على النبي محمد ﷺ أمرته (والمسلمين) بالقراءة والكتابة بالقلم، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥).

إنّ المعجزات النبوية كانت عديدة، ولكن كونه خاتم الأنبياء فلا بد أن تكون طويلة المدى بعد وفاته (بالمقارنة مع معجزات الأنبياء الآخرين المشهورة من أتباعهم في تلك الحقبة الزمنية): وتعني القرآن معجزة محمد ﷺ الكبرى الخالدة وهو يحوي العديد من المعجزات العلمية التي تضفي دلالة إضافية مؤيدة لنبوة محمد ﷺ بعد موته وأن القرآن هو حقاً كلام الله. لذا فإن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن المشركين يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، لكنهم عنيدون جداً فلا يقرّون بذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٣-١٤).

خذ مثلاً كثر الآيات إثارة للجدل:

انشقاق القمر، وهذه آية كونية كبرى، التي لا يصدقها الكثير من الغربيين في الماضي؛ والحقيقة حتى بعض المسلمين يعتقدون أنها أسطورة (أو خرافة).

عن أنس بن مالك، «إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما». رواه البخاري في صحيحه، لكنّ أهل مكة قالوا له (بعد ذلك): سحرنا محمد.

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: ١-٣).

أ. الدليل العربي: شهود العيان في المنطقة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال النبي ﷺ: (اشهدوا) رواه البخاري.

وحسب المودودي، فإن علماء السلف والرواة اتفقوا أن هذه الحادثة حصلت عند منى في مكة قبل ٥ سنوات من هجرة النبي إلى المدينة. انشق القمر إلى فلقتين واضحتين أمام أعينهم. وهذان الجزءان انفصلا بعضهما عن بعض وتراجعا حتى رأى أهل مكة كل فلقة على جانب جبل يفصلهما. ومن ثمّ، وفي لحظة التحم الجزءان ثانية (ليعود القمر كما كان). وهذا إثبات جليّ لحقيقة أن نظام الكون ليس سرمدياً أو أنه لا يفنى بل يمكن تعطيله. والحادثة هذه تشير إلى أن النجوم الضخمة والكواكب يمكن أن تنشق إلى قطع، وتنحل بعضها عن بعض، وتتصادم بعضها مع بعض وكلّ ما وصف في القرآن عن يوم البعث والنشور يمكن حدوثه.

والنبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) قد دعا أن يكون انتباه الناس للحادثة هذه بالذات وهم يرون القمر وطلب منهم عدّها معلّماً وشهداء عليها. لكن الكفّار وصفوها بالسحر الوهمي واستمروا في تكذيبها. وقد وُبِّخوا في سورة القمر على عنادهم.

التعبير الإسلامي الفني لانشقاق القمر واحدة من معجزات محمد ﷺ

ب. الدليل البريطاني: شهود عيان عالمياً

تتعلق الحادثة بالملك (شكرواتي فرماز) وهي موثّقة في مخطوطة قديمة في مكتبة دائرة الهند في لندن، مرجع رقم: عربي ٢٨٠٧، ١٥٢-١٧٣. وهو مذكور في كتاب «محمد رسول الله» لـ م حميد الله: (هناك تقليد قديم في «مالابار» ساحل جنوب غرب الهند، أن شكرواتي فرماز، أحد ملوكهم، قد أبصر وشهد انشقاق القمر، المعجزة

المحتفى بها للنبي الكريم ﷺ في مكة، مُستعلماً منه النبوة بمجيء رسول الله من الجزيرة العربية، فعيّن ابنه وصياً للرحيل وللالتقاء بالنبي. فاعتنق الإسلام على يد النبي وعند رجوعه لبلاده وبتوجيه النبي، مات في ميناء زَفَر (أو ظفار) باليمن حيث مرقد (الملك الهندي) الذي كان يُزار لقرون عدة قرون. وبسبب هذه الحادثة للكهم هذا، فإن أهل «مالابار» كانوا أوّل جماعة اعتنقت الإسلام في الهند وبعد ذلك ازدادت التجارة مع العرب حيث صارت السفن العربية تستخدم شواطئ «مالابار» في طريقها للصين. وقيل بزوغ نجم النبي محمد ﷺ فإن «مالابار» كانت أيضاً مجتمعاً نصرانياً يعود تاريخه إلى أوائل أتباع النبي عيسى (عليه السلام): القديس توماس يُعتقد أنه هاجر إلى الهند ومات هناك. ومجتمع «مالابار» هذا ظلّ بعيداً عن التطورات الدينية للنصرانية حتى مجيء الرحّالة البرتغالي فاسكودي كاما. وعندما عضد البريطانيون معاقلهم في الهند، حشّدوا أكبر عملية بحرية (على شواطئ الهند) ضد مسلمي «مالابار».

جـ. دليل ناسا الأمريكي: خط تصدّع وانكسار القمر

يُظهر انشقاق القمر بوساطة ناسا (إدارة علوم الطيران والفضاء الوطني – مركزها في واشنطن د. س. مع مواكز ميدانية عبر البلاد) أن القشرة تحت السطح تشوّهت بسهولة مُسببة تشقّقاً وغوصاناً لتكوّن تصدّعاً يشبه جدولاً مستقيماً... وهو في الحقيقة خط تصدّع متكوّن من زلزال قمري في الماضي القديم.. ناسا خط التصدع والانكسار القمري (انظر الصورة أدناه).

أكّد العلم فعلاً أن القمر قد انشق (تصدّع) كما ذكر الله العظيم في قرآنه الكريم منذ ١٥٠٠ سنة. ثم إن هناك شهود عيان كثيرين شاهدوا انشقاق القمر إلى نصفين بوصفه آية تثبت نبوة النبي محمد ﷺ وصحتها بتأييد الله العظيم. وهذه الحادثة الكبيرة قد شهدها شهادة عيان أهل مكة وآخرون كثيرون كملك مالابار، وقد أوردت حديثاً ناسا التي أظهرت خط التصدع (والالتحام) القمر.

ولا بد من التسليم أولاً أن القرآن العظيم لا يُمكن أن تترجم جميع معانيه لأيّ لغة ولا يمكن أن تكون الترجمة قرآناً باللغة الأجنبية لأن القرآن مُعجز بلفظه ومعناه وهو كلام الله سبحانه وتعالى انزله على محمد ﷺ بلسان عربي مبين. ولكن لما كانت الترجمة وسيلة من وسائل نقل بعض المعاني وتيسير فهم القرآن وتدبّره لمن لا يعرف اللغة العربية وجب القيام بها نُصحاً للعباد وإبلاغاً لكتاب الله إلى من لا يعرف لغته، وقد تصدّى لمثل هذه الترجمات مجموعة من الناس لأداء هذه المهمة.

لقد كانت فضيلة هذا القرآن مدعومةً بالحديث النبويّ أن تجعل اللغة العربية لغة التداول العامة من منتصف القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن عشر؛ لأن معظم (إن لم يكن كلّ) الناس ذلك الزمان، إن كانوا مهتدين للإسلام أم لا، كانوا حريصين على تعلّم العربية بسبب الحاجة لأداء الواجبات الدينيّة؛ لتوسيع المعرفة في الحقول المختلفة؛ أو ببساطة لغرض التواصل في مُعاملات المال والأعمال.

صفات الله: وحدانية الإله (التوحيد)، جوهر العقيدة الإسلامية [1] [2] [3] [4]

جاء الإسلام ليُرجع الإنسان إلى خالقه ورازقه (الله) وليجعل هدايته الربّانية المصدر الذي تُستمدُّ منه القيم والمعايير؛ لأنه الوهّاب والخلّاق.

وحدانية الله مُشرِّعاً وحاكماً وحيداً هي الإعلان بالاستسلام لله والتحوّل إلى الإسلام. وإن وحدانية الله (التوحيد) هي جوهر الإسلام والأمر الأكثر جديّة بالمعرفة. يلخّص في سورة الإخلاص التي تعدل ثُلث القرآن (القرآن يحوي ٣ أثلاث: ثلث للتوحيد، وثلث للعبادات، وثلث للمعاملات): ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ الإخلاص ١-٤.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، ويصف الله سبحانه نفسه بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأنعام ١٠١.

وربّما أحسن ما يصف الله نفسه في آية الكرسيّ، أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ البقرة: ٢٥٥.

ويقال إن الكرسي بالمقارنة للعرش لا شيء، وإنما هو كحلقة مرميّة في فلاة. وإذا كان الكرسي يسع الكون كلّه فكيف هي عظمة العرش؛ حقّاً إن الله خالق الكرسي والعرش هو الأعظم الأكبر سبحانه وتعالى.

وفي الإسلام جميع ما ورد في كتاب الله عز وجل من صفات الله تعالى كالوجه والعين واليد والساق والمجيء والاستواء (على العرش) من الصفات، أو مما وصفه الرسول ﷺ وثبت في الأحاديث النبوية الصحيحة كالنزول، والضحك، وغيرها فإن العلماء بالكتاب والسُنة يؤمنون بهذه الصفات، ويثبتونها لله تعالى من غير تأويل و تشبيه أو تعطيل، وهي صفات تليق بالله تعالى لا تشبه صفات أحد من المخلوقين لقوله تعالى:

(١) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ الشورى: ١١. (٢) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ الإخلاص: ٤.

والله سبحانه يجلّ نفسه ويميزها عن خلقه (وعن الإنسان) ومواصفاتهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ مريم: ٨٨-٩٣.

ثم يبين الله سبحانه السرّ الذي يكتنف عيسى عليه السلام، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة: ٧٢-٧٣.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦).

إن النصارى أطروا عيسى حتى اتخذوه إلهاً مع الله – ويا للأسف – روى عمر (الخليفة الثاني في الإسلام): سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله). صحيح البخاري، الحديث رقم ٦٥٤. لذلك خاطب الله عز وجل أهل الكتاب بقوله:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ۚ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۞ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧١-١٧٢).

في عام الوفود (١٠ هجري ٦٣١ ميلادي) وفد نصارى نجران (باتجاه اليمن ونحو ١٥٠ ميلاً شمال صنعاء) إلى المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وهو وفد من ستين راكباً. وقد أعجبوا جداً بالنصّ القرآني الذي يشرح وضع المسيح الحقيقي: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

إذا كان عيسى عليه السلام قد وُلد من دون أب بشري فإن آدم عليه السلام لم يكن له أب ولا أم من بشر. لكن العادات والتقاليد المتأصلة فيهم منعتهم من اعتناق الإسلام جماعةً آنذاك. ومن هنا يكمّل القرآن النصّ المذكور آنفاً بتحدي إيمان هذا الوفد، فقال تعالى:

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦٠-٦١).

لذلك فإن النبي الكريم ﷺ بثبات إيمانه دعاهم (للمباهلة) وهو اجتماع جليل مهيب (بشكل متزايد) حيث يستدعي كل طرف من أطراف المنازلة لا رجاله فقط، بل خصوص أهله من نسائه وأبنائه. ثم يُصلّون لله بكل جدّ واجتهاد متضرعين إليه بصدق أن يُنزل لعنته (لعنة الله) على الكاذب. والذين لهم إيمان صادق وحقيقي لن يترددوا أبتة. لكن وفد النصارى ضعفوا ورفضوا، ومن ثمّ قبلوا دفع الجزية للدولة الإسلامية وصُرفوا بروح تسامح الإسلام على أن تدافع عنهم دولة الإسلام لقاء جزيتهم هذه. وعندما رفضوا قبول التحدي (والذي وثّقه القرآن للتاريخ)، فإن الله سبحانه وتعالى قرر حاسماً أمر المسيح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦٢).

ومع كل ذلك فإن عضواً واحداً من هذا الوفد قد اعتنق الإسلام اسمه (كوز ابن علقمة) لأنه حين عثرت البغلة التي تحمل أخاه (أبو حارثة بن علقمة) وهو أحد القادة السادة الثلاثة لوفد نجران) في الطريق من نجران إلى المدينة، حدثت هذه المحادثة المثيرة للذكر والانتباه بين هذين الأخوين:

قال كوز: تعس الأبعد! يريد رسول الله ﷺ.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال كوز متعجباً: ولِمَ يا أخي؟!

قال أبو حارثة: والله إنه للنبي الذي كنّا ننتظرُ.

فقال له كوز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟

قال أبو الحارثة: ما صنع بنا هؤلاء القوم (الروم البيزنطيون): شرّفونا وموّلونا وأكرمونا (بالمال والهدايا والخدمات)، وقد أبوا إلاّ خلافه (خلاف محمد)، فلو فعلتُ (اعتنقت الإسلام)، نزعوا (الروم) منّا كلّ ما ترى. فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمه حتى أسلم بعد ذلك، فهو كان يُحدّث عنه هذا الحديث. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص ٥١٠.

ويقرر الله سبحانه وتعالى عدم منطقية وجود أكثر من إله واحد لهذا الكون، فقال سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦-١٧).

فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٩).

ثم يؤكد سبحانه حقيقة بشرية عيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

كذلك فإن نهاية حياة عيسى على الأرض مُكتنفة بالأسرار كولادته. لكن الله تعالى يشرح باختصار ما حصل لعيسى بقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٩).

وقوله تعالى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ هنا لها تفسيران: قبل موت عيسى وبعد نزوله من السماء، الذي يعني أن عيسى لا يزال حياً بجسمه وإنه سيظهر قبيل اليوم الأخير (للدنيا) بعد مجيء المهدي (إمام أو قائد المسلمين) عندما يُصفّى العالم من الإثم والشرك. ثم يكون موته الأخير قبيل يوم القيامة. لكن الجميع سيؤمن به قبل موته الأخير هذا. وهناك آخرون يعتقدون «قبل موته» تعود على «الواحد من أهل الكتاب»، أي قبل موت اليهودي أو النصراني، عند ظهور ملك الموت عندما يعتقد أن عيسى لم يكن سوى رسول الله دون اشتراكه بالألوهية إن التشديد (ليؤمنن) تشير إلى مسألة الوجوب أكثر من الحقيقة.

إن الكنائس النصرانية التقليدية تجعل النقطة الجوهرية في مبدئها هي أن المسيح فارق الحياة على الصليب وإنه مات ثم دُفن، وإنه في اليوم الثالث خرج صاحياً بجسده وبجروحه كما هي، ثم مشى وتحدث وأكل مع حواريه، ومن ثمّ ارتفع بجسده إلى السماء. وهذا ضروري للمبدأ الكنسي (تضحية الدم والتكفير البديل عن الخطايا البشرية) وهو مبدأ مرفوض في الإسلام.

لكن بعض الطوائف النصرانية الأولى لا تؤمن بقتل المسيح على الصليب:

- البازيليديّون يؤمنون أن شخصاً آخر استبدل به عن المسيح.
- الدوسيتيّة يعتقدون أن المسيح لم يكن له جسم فيزيائي أو طبيعي وإنما جسم ظاهري أو خيالي وإن صلبه كان شيئاً ظاهرياً وليس حقيقةً.

- الإنجيل المارسيوني (نحو ١٣٨ ميلادي) يرفض ولادة المسيح وإنما يقول فقط إنه ظهر في شكل بشري.
- إنجيل القديس برنابا يؤيد نظرية الاستبدال على الصليب.
- التعليم القرآني يقول: إن المسيح لم يُصلب ولم يُقتل من قبل اليهود آخذاً في الحسبان الظروف الظاهرية المعينة التي أدخلت خُداعاً بصرياً في عقول بعض أعدائه؛ وإن الجدال والظنون والحدس في هذه الأمور يجر الخيبة؛ وإنه قد رُفع إلى الله.

إن الإمبراطور الروماني قسطنطين هو الذي آمن بالنصرانية لتوفر له وسائل سياسية وعسكرية كبرى في تدعيم مُلكه؛ وقد ادُعيَ أنه في مساء معركة مهمة رأى الإمبراطور صليباً في السماء مع هذه الكلمات: «بهذه العلامة سوف تنتصر».

وضع قُسطنطين النصرانية على قدم المساواة مع الوثنية، فبدأ وثنيو العالم الروماني يقبلون المسيحيّة الجديدة بمئات الألوف جالبين معهم عاداتهم الوثنية. وهو ساعد الرومان على التكيّف مع النصرانية، ولكن ليس في رسالة النصرانية الصافية الفريدة. شابهت المسيحية الجديدة عناصر معينة في المعتقد الروماني ولا سيّما عبادة (مثرا) حامي الإمبراطورية والمرتبطة بآلهة الشمس هيليوس وأبولو. وفي الحقيقة فإن مثرا أو مثراس هو إله النور وحامي الحقيقة وعدو قوى الظلام عند قدماء الفرس، ثم انتقلت عبادته عند الإمبراطورية الرومانية وشاعت هناك: مثريوم (جمعها مثراي) هو غارٌ أو معبد مقدس للإله مثرا والمثرائية هي المعتقد أو عبادة مثرا (إله النور). ميلاد مثرا في ٢٥ كانون الأول والقريب لانقلاب الشمس الشتوي أصبح ميلاد المسيح إنه وُلد في نهاية الصيف – انظر تحت المكرس (كرايست) في معجم الفردوس. صعود مثرا الموافق لرجوع الشمس للظهور عند اعتدال الليل والنهار الربيعي أصبح عُطلة (أيستر) المسيحية. ثم إن المسيحيين اتخذوا المعبد الكهف المُخصص لمثرا في روما على تلة الفاتيكان وجعلوه مركز الكنيسة الكاثوليكية. لقب القديس العالمي لخدمة مثرا: الأب والأبوي أصبح هو لقب أسقف روما، بابا أو بوب. والمؤتمرات الحديثة بدأت تناقش ذات المسيح؛ المباحثات المطوّلة انتهت بنتائج مضطربة ومنقسمة نوعاً ما لهذا الموضوع خارج نطاق هذا الكتاب.

وقد أكّد الله المجيء الثاني للمسيح في الأيام الأخيرة قبل البعث عندما يقوم بتحطيم المبادئ والشعارات الكاذبة المذكورة تحت اسمه زوراً، ويهيّئ للقبول العالمي للإسلام، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف، ٦١).

الإسلام المعتقد القديم الحديث ومنهاج الحياة الشامل[٤] (ب، ج) (١، ب، ج)

ليس الإسلام ديناً بالمعنى الضيق للمبدأ الروحي. إنه طريقة للحياة والتفكير والقول والعمل: الإيمان بلا فعل دون معنى. وفي الإسلام مصطلح العبادة يعني كلّ الطيف الواسع لأعمال الحياة. الإيمان وازع العمل، والعمل يُخرج الإيمان إلى العالم، حيث يمكن له أن ينمو ويتقوى. لذلك قال النبي محمد ﷺ: (**بُني الإسلام على خمس: شهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمّداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان**). (رواه البخاري ومسلم)

وعن عمر (ابن الخطّاب، الخليفة الثاني) ﷺ قال: «بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ ذات يوم؛ إذ طلَعَ علينا رجُلٌ شديد بياض الثياب، شديدُ سواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفُهُ منّا أحد حتى جلَسَ إلى النبي ﷺ، فأسند رُكبتيه إلى رُكبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمّداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم**

رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويُصدّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه». قال صدقت. فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فهو يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلدَ الأمةُ ربّتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». ثم انطلق فلبثتُ مليّاً ثم قال: «يا عُمَرُ أتدري مَن السائل؟» قُلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يُعلّمكم دينكم». والحديث في صحيح مسلم.

لذلك فبإيجاز: الإسلام هو الخضوع التام لله ولهدايته؛ وبناءً على ذلك فجميع الأنبياء مُسلمون من وقت آدم، وإبراهيم، ويعقوب، وعيسى وحتى محمد خاتم الأنبياء «صلوات الله عليهم أجمعين». وقد وثّق الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة المهمة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

إن وحدانية الله تتجلى في وحدانية الرسالة: رسالة الإسلام الخالدة من الله الواحد الأحد عبر أنبيائه العديدين من آدم إلى مُحمّد إلى الأجيال المتعاقبة عبر تاريخ البشرية. إن الذين آمنوا بهذه الرسالة الإسلامية (الاستسلام لله الواحد) هم أخوة يربطهم إيمانهم وينتمون إلى أسرة عالمية واحدة: هي الأمّة الإسلامية الواحدة التي تمتد في أعماق التاريخ، سواء كانوا أتباع الأنبياء: نوح، إبراهيم، يعقوب (وأولاده الاثنا عشر)، وموسى، وعيسى، وانتهاء بمُحمّد، وأخيراً في رجوع عيسى قبل يوم الحساب. قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

بل إنّ الله يُهدّد ويتوعدّ من أي تفريق بين الرُسُل؛ لأنهم جميعاً من الله الواحد: فالإيمان ببعض الرسل ورفض الآخرين هو كفر صريح. ومن هنا جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١).

وهكذا أعاد الإسلام ربط الماضي بالحاضر بقدر ما ربط هذه الحياة الدنيا بالآخرة. والإسلام أعطى البشرية مفهوماً جديداً من القيم والمعايير وأراهم الطريق لكي يتعلموا ويعيشوا هذه القيم والمعايير. كما زوّدهم بمفهوم جديد للعلاقات الإنسانية. كان لجيل الصحابة رؤية قرآنية نبوية منبثقة من معتقدهم الإيماني تفسّر لهم التاريخ والكون والحياة والإنسان بشمولية وتوازن، رؤية مكّنته من فتح العالم المعروف آنذاك وإقامة نظام العالم القديم على أُسُس هذه الرؤية الشاملة والمُتزنة (نظام العالم القديم هو العالم قبل اكتشاف كولومبوس للأمريكتين عام ١٤٩٢م التي سُميت بالعالم الجديد)؛ وقد ترجم جيل الصحابة الفاتحين هذه الرؤية إلى عالم الواقع بمنظومة قيم وأخلاق جذبت عقول الشعوب المفتوحة واستأسرت قلوبهم للإسلام، فدخل الناس في دين الله أفواجاً. وصارت العربية اللغة الإسلامية المفضّلة للتواصل العالميّ في نظام العالم القديم. ففي هذا العالم هناك حزبٌ وحيدٌ لله وحده وكل الأحزاب الأخرى هي أحزاب الشيطان والطاغوت. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦).

وفي حياة الإنسان هناك نظام حق وحيد وهو الإسلام، وكلُّ الأنظمة الأخرى هي الجاهلية. قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

وهناك قانون واحدٌ فقط يجب اتباعه وهو شريعة الله؛ ما عدا ذلك هو الهوى المجرّد. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

والحق واحد لا ينقسم؛ وما عدا ذلك فهو ضلالٌ. قال الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

ثم إن الإسلام يزوّد دستوراً للحياة، وقوانين ربّانية شاملة لتنظيم حياة الإنسان على الأرض طبقاً لتعاليم الإسلام. هذا الدستور الإسلامي لا ينظم القضايا الشخصية والروحية فحسب بل يتعداها لينظم شتى جوانب الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسيّة للمجتمع والعالم أيضاً.

لذا فإن المعاملات التجارية والقيم الأخلاقية لا تنفصل عن الإيمان والممارسات العملية اليومية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

كذلك فإن الإسلام جاء بهداية كاملة وتعاليم قطعيّة. جاء لرفع الإنسان إلى الأعلى وتحريره من قيود الأرض والتراب. فكلّ المخلوقات هي خلق الله وكلّ البلاد هي بلاد الله؛ فالإسلام رسالة عالمية والمسلمون لا يحدهم أرض الميلاد ولا تحدهم حدودهم الجغرافية القوميّة. لذا فكل العلاقات يجب أن تُبنى من الله لأننا جئنا للوجود بإرادته وسوف نعود إليه آخراً. علاقات الدم يقررها الإسلام فقط عبر صلاتهم بالخالق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وعندما تتأسس علاقة الإيمان سواءً كانت هذه علاقة دم أو غيرها، يصبح المؤمنون كالأخوة. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وهو تعريف ثم إنه وصفة علاجية. والنبي ﷺ يكمل هذا بقوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه). رواه البخاري ومسلم.

وفي الإسلام فإن الزواج/ الأسرة هي مؤسسة موقرة جداً. لذا فالرهبانيّة الممارسة في النصرانية ليست صنوعة فقط؛ بل هي غير معروفة تماماً في الإسلام. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧).

كذلك فإن النبي يعدُّ الموقف الأخلاقي مع الزوجة والأسرة وضوحاً لكمال الإيمان بالله ولذلك قال ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً، وخياركم خياركم لنسائه). رواه الترمذي.

سُئلت عائشة (أحبُّ زوجة للنبي ﷺ) بعد وفاة النبي محمد ﷺ، عن أخلاق النبي محمد ﷺ (وتصرُّفاته) فأجابت (كان خُلُقهُ القرآن)، مُشيرةً إلى أنه كان قرآناً متحركاً قد ترجم كل قيم القرآن الأخلاقية بأعماله: أي إن النبي ﷺ كان تجسيداً لمنهج القرآن الخُلُقيّ. لذا فإن النبي محمداً ﷺ قد وضع المعيار الأخلاقي الأعلى والمثل الذي يُحتذى لأتباعه ليقلّده كل الأتباع المسلمين. ومن هنا مَدَحَ الله محمداً وطلبَ من المسلمين اتباع قدوته: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٢١.

وفي (خطبة الوداع) للنبي محمد ﷺ قبيل موته، خطب في أتباعه، فقال: (... أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً... واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عَوانٍ (أسيرات) لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً.. الناسُ لآدم وآدم من تراب... إن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين أخوة... ولا فضل لعربي على عجمي إلا بـ لتقوى) هذه الكلمات أُلقيت بالعربيّة قد تبدو وكأنها من عصر حركة الحقوق المدنية، لكنها قيلت قبل ١٤٠٠ سنة، وهي تمثل أول تشريع لحقوق الإنسان.

وعلى الرغم من العقلية القبلية للعرب فان الممارسة الإسلامية قد حُميت بمؤسسة قانون العدالة لحماية رعايا الدولة الإسلامية؛ فالقانون الإسلامي يهدف إلى حماية العناصر الخمسة: الدين، والحياة، والمال، والعقل، والعرض. والحديثان النبويان الآتيان يشكّلان القاعدة القانونية للحياة المدنية في الإسلام. قوله ﷺ: «لو يُعطى الناسُ بدعواهم لادّعى رجالٌ أموال قوم ودماءهم: لكن البيّنةُ على المُدّعي، واليمينُ على من أنكرَ». رواه البيهقي وبعضه في الصحيحين.

وقوله ﷺ أيضاً: (لاضرر ولاضرار). رواه ابن ماجة والدار قطني ومالك. وكلُّ الناس (مسلمين وغير مسلمين) في العالم الإسلامي متساوون بحقوقهم الإنسانية أمام الله وأمام القانون الإسلامي، حيث يُحكم الناسُ بناءً على أعمالهم لا على أساس معتقداتهم.

وبالرغم من مؤسسة القانون الإسلامي هذه، فالإسلام يشجّع كلَّ المؤمنين على كظم الغيظ والعفو عن الناس ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ طلباً لثواب الله العظيم، وأعظم الثواب قد وُضع خصوصاً للمسلمين الصابرين.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٤. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت: ٣٤. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر: ١٠.

والإسلام لا يميز (على أساس) تربة، ولا عنصر، ولا سلالة، ولا أسرة؛ لأنه يقبل الإسلام فقط خضوعاً لله وحده وكل الصلات مبنيّة على هذا الإساس. وهكذا حرّر الإسلام كلّ الإنسانية من روابط الأرض لكي تُحلّق إلى العُلا كما حرّرها من أواصر الدم (القيود البيولوجية أو الحيوية) حتى يسمو للعُلا. وحين يعترف الإسلام بالطبيعة البشرية في ارتكاب الذنوب، فإن باب الله يبقى دوماً مفتوحاً لقبول التوبة من جميع البشرية مباشرة من دون الحاجة لأي وسيط؛ هذا فضلاً على تشجيع الإسلام لجميع المسلمين أن يعفوا (ويصفحوا) عن إخوانهم في الإسلام.

وعلى أساس الإسلام فإن صلات الدم كلها وأواصر السلالة وعلاقات الزواج التي لا تُقام على الإيمان الإسلامي، باطلة. فالله سبحانه وتعالى يمدحُ المؤمنين:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة: ٢٢.

يبدو ذلك واضحاً في أواصر الدم بين محمد (عليه السلام) وعمه (أبي لهب) وابن عمه عمرو بن هشام (أبي جهل) الميثورة (لأنهما مشركان معاديان للإسلام)، ثم إن المهاجرين المسلمين من مكة كانوا يقاتلون أسرهم وقاربهم المعادين للإسلام. بل كانوا في الصفوف الأولى لمعركة بدر، بينما في الجهة الأخرى كانت علاقات المهاجرين أنصار المدينة قوية على أساس الإيمان المشترك. وأصبحوا إخوة، بل كانوا أكثر من أقارب الدم (النسب). هذه العلاقة أسست لأخوّة جديدة للمُسلمين يشترك فيها العرب وغير العرب. صُهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي كانوا كلهم إخوة. ولم تكن هناك عصبية قبلية بينهم. شرف السلالة والنسب قد انتهى وصوت القوميّة قد أسكت ورسول الله ﷺ خطبهم قائلاً: (دعوها – أي دعوا العصبية – فإنها مُنتنة) وقال ﷺ: (ليس منّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منّا من قاتل على عصبيّة، وليس منّا من مات على عصبيّة).

لذا فإن هذه العصبية (عصبية النسب والسلالة) قد انتهت: وهذا الشعار (شعار العنصرية) قد مات: وهذا الكبرياء (كبرياء القوميّة) قد اختفى: وحلّقت روحُ الإنسان إلى الأفق العالية، مُحرّرة من أواصر اللحم والدم ومن شروز التمسُّك بالتراب وبأرض الوطن. منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم قطعة الأرض بل حمى الإسلام (دار السلام): المعقل الذي يحكم فيه الإيمان وتسيطر عليه شريعة الله، الدار التي يتخذ منها ملجأ ويُدافع عنها، وفي محاولته تلك قد يستشهد. أصبح داخل هذه الأمّة المسلمة، حلم الكثيرين من المسلمين غير الناطقين بالعربية من الزواج أو المسلم الناطق بالعربية حلماً قابلاً للتطبيق واقعياً في دار الإسلام: لأن الجميع يشترك بحبّه للإسلام، وحبّه لغة العربية (نظر أسفل تحت عنوان الأمّة).

وحقاً إن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، لم يكن رحمة للبشرية فحسب، بل هو رحمة لكل المخلوقات. فهو الذي علّم احترام حقوق الحيوان وأمر: أن تُجنّب المعاناة وأن تُعطى ما تحتاجه من الطعام، وأن تُعامَل بالحُسنى. فعن أبي يَعْلَى شدّاد ابن أوس ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتبَ الإحسان على كُلّ شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحِدَّ أحدُكم شفرتَهُ، وليرح ذبيحته». رواه مسلم.

وقد شدّد الرسول على أن احترام الحيوان هو جزء من تعاليم الإسلام المهمة[٨] ففي ذكاة الحيوانات من أجل الطعام، لم يأمر النبيُّ ﷺ المسلمين باحترام مشاعر الذبح فحسب وذلك بقول: «بسم الله، الله أكبر» لتحليل قتل الحيوان حتى يؤكل. لكنه طالب أن يُعامل الحيوان بأحسن طريقة وأن يُجنّب أي معاناة غير ضرورية. فالنبي ﷺ يدخل ليقول (أتريد أن تقتلها مرتين)؟ (لمَ لم تحدّ شفرتك قبل وضعها للذبح) أو هكذا قال، ومن ثمّ فإن النبي ﷺ جعل حقوق الحيوان جزءاً من واجبات البشر وأن تُفهم على أنها أحد شروط السمو الروحي: فعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (عُذّبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض». رواه الشيخان.

وبالعكس، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (غُفِرَ لامرأة مُومسة مرّت بكلب على رأس ركيٍّ يلهث قد كاد يقتُلُهُ العطش فنزعت خُفّها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفر لها بذلك). صحيح البخاري.

فالنبي ﷺ يعد كل إحسان لحيوان فيه حسنة من الله: ولكنه يذمّ بشدة كُلّ مَنْ اشترك في تعذيب الحيوان أو استخدم معاذة الطيور مثلاً لغرض اللهو، أو قتل الطيور من أجل اللّعب: فعن ابن عمر ﷺ أنه مرّ بنفر من قريش قد نصبوا طيراً (دجاجة) يرمونها، فلما رأوه تفرّقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروحُ غرضاً».

ثم إنه حرّم وسْمَ الحيوانات في الوجه: فعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مرّ عليه حمارٌ قد وُسِم في وجهه فقال: (لعن الله الذي وسمه). وفي حديث آخر: «نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه». صحيح مسلم.

ونزلت سور عدة في القرآن الكريم تحمل اسم الحيوان تكريماً، فهناك ما لا يقلّ عن ٨ سور في القرآن الكريم تحمل أسماء الحيوانات الاجتماعية والحشرات:

١. البقرة.
٢. الأنعام.
٣. النحل.
٤. النمل.
٥. العنكبوت.
٦. العلق.
٧. العاديات (وهي الحيوانات التي تعدو كالخيل والإبل السريعة).
٨. الفيل.

كذلك فإنّ نصوص القرآن قد ذكرت أيضاً: الضأن (الشاة) والمعز، والنعاج (جمع نعجة)، والبقر، والغنم، والعجل، واليُدْن، والذبح (الكبش)، والقردة، والخنازير، والطير، والهدهد، وطائر السلوى، والغراب، والناقة، والإبل، والجمل، والعشار (النوق الحبالى)، والوحوش، والجوارح، والكلاب (ومكلّبين)، والذئب، والقسورة (الأسد)، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والذباب، والبعوض، والدوابّ (جمع دابّة)، ودابة الأرض (الأرضة)، والسيدة، والحيّة، والثعبان، والفراش، والخيل، والحمير، والبغال، والعاديات (الخيل التي تعدو في الغزو)، والموريات (الخيل توري النار قدحاً بحوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة بالليل)، والمغيرات (الخيل المُغيرة على العدو)، والصافنات (الخيل المنتصبة)، والجياد، وصيد البرّ وصيد البحر، والبَحيرة، (الناقة أو الشاة إذا نتجت عشرة أبطن، تكون من خير الأنعام في الجاهلية فيبحروها: أي: يشقوا أذنها ويتركوها ترعى، فتكون مُعلّمة يحرّم لحمها ولبنها وركوبها، فإن ماتت حل أكلها)، والسائبة (الناقة تسيّب: أي: تترك ولا تركب في الجاهلية بسبب نذر، أو إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث)، والوصيلة (الناقة تبتكر بالأنثى، ثم تثني بأنثى، فسموها: الوصيلة: لأنها وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فيجدعونها لطواغيتهم أو هي الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن، ومن الشاء هي الشاة التي تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع جُدعت، وقطع قرنها، فيقولون: قد وصلت فلا يذبحونها، ولا تضرب، ولا تمنع مهما وردت على حوض)، والحام (فحل الإبل الذي لقح عشراً قالوا: حمى هذا ظهره، فيتركوه فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزّون له وبراً ولا يمنعونه من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه)، والحوت الذي التقم يونس، والحوت (السمك الكبير — في قصة موسى والخضر)، ولحم البحر الطريّ (السمك)، والمرجان، واللؤلؤ (إفراز محار الرخويات لمادة صلبة كروية حول الجسم الغريب داخل أصدافها).

بل إنّ أكثر الصحابة رواية للحديث النبوي هو عبد الرحمن بن صخر، رأى النبيّ ﷺ في كمّه هرة، فقال: (يـ **أبا هريرة**)، فاشتهر به (لدرجة أن نسي الكثير اسمه الحقيقي).

لذلك فإن النبي محمداً ﷺ، نحو ٦١٠ ميلادي، (مطلع القرن السابع) قد علّم أن **حقوق الحيوان** هي جزء مهم من تعاليم الإسلام وتطبيقاته للمرة الأولى وقبل منظمات حقوق حيوان القرن العشرين بزمن طويل.

وقد جندت اللغة العربية مخزونها الهائل من المفردات العربية الجميلة لخدمة الإسلام في تقريراته لحقوق الإنسان والحيوان. واضافة إلى حقوق الحيوان، فإن الإسلام هو أول نظام عالمي إعتنى بالبيئة، وجعلها من أعمال الإحسان المرتبط بعبادة الله تعالى: يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف، ٥٦. ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص، ٧٧.

وحثّ النبيّ ﷺ على "تخضير البيئة وتشجيرها" ، فقال: «**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**». رواه الشيخان. وقال ﷺ: «**من أحيا أرضا ميتة فهي له**». رواه الترمذي عن جابر.

بل لفت الإسلام نظر الإنسان إلى ضرورة "التوازن البيئي" وجعل من المسلم صديقاً للبيئة (Eco-Friendly) بالحفاظ على نباتات الأرض وتوازنها في الطبيعة، كما خلقها الله؛ لأن هذا التوازن ضرورة علمية تقتضيها حكمة الله المقصودة، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الحجر: ١٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وحثّ الإسلام على نظافة المحيط البيئي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال سبحانه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال النبيّ ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**». رواه مسلم. ونهى النبيّ ﷺ بشدة عن "تلويث البيئة" فقال: «**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد أموارد الماء، وقارعة الطريق، والظل**». رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم والبيهقي.

وهذا الحديث هو تقرير إسلاميّ عن "وقاية البيئة" من مخاطر الصحة العامة، إضافة إلى المحافظة على القيمة الجمالية للبيئة. ثم إن للحديث فوائد طبية ووقائية جمّة ضدّ تلويث موارد المياه المستعملة في الشرب والطبخ والاستحمام لمنع انتقال عدوى الجراثيم عن طريق الماء؛ وضدّ تلويث طرق المواصلات لانسيابية حركة المارّة والسيارة ولمنع الأمراض المعدية من الاستشراء؛ وضدّ تلويث مواضع ظلّ الأشجار، وهي محطات نزول المسافرين والتجار للراحة والأكل والقيلولة قبل مواصلة مسيرهم الطويل.

فقال ﷺ: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري (أي الراكد)، ثم يغتسل منه**». رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، ثم يتوضأ منه**». رواه أحمد والترمذي والنسائي. وقال ﷺ: «**الإيمان بضع وستون – أو وسبعون – شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وارفعها قول: لا إله إلا الله**». رواه الشيخان. وقال ﷺ: «**من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم**» رواه الطبراني.

بل إنّ الإسلام هو أول من نادى بـ "الحفاظ على الأجناس الحية من الانقراض"؛ فأخبر الله تعالى عن قصة نوح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وعندما تأذى الناس من الكلاب في المدينة (بسبب نباحها بالليل، وبسبب عضات الكلاب التي قد تكون ميتة إن كانت مكلوبة أي مصابة بداء الكلب)، رفض النبيّ ﷺ استئصالها لأنها أمة من الحيوان. فقال: «**لولا أنّ الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم**». رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي.

هذا لأنّ الإسلام يقرر أنّ الكائنات الحية لها كينونة وهوية اجتماعية خاصة بها كالنمل والنحل والكلاب والسنانير، فيقول الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

هل انتشر الإسلام بالسيف؟[1][2][3][4][5][6]

يعني الإسلام الاستسلام لله ويعني أيضاً دين السلام من الفعل سَلُمَ: أي خضع، ومنه اشتق إسلام واستسلام، لكن من الجذر العربي نفسه الفعل سَلِمَ أي صلُحَ وأمِنَ، ومنه كلمة سلام بمعنى أمان. السلام هو تحية المسلمين كذلك فإن السلام هو أحد أسماء الله الحسنى لأنه مصدر كل الأمن والأمان.

لقد ازدهر الإسلام وانتشر في أثناء السلام أكثر من الحرب؛ فبعد صُلح الحديبيّة (سمّاها الله فتحاً) ازدادت أعداد المسلمين أضعافاً مضاعفة أكثر من أي غزوة. كان لتأثير محمد ولجاذبية الإسلام في استخدامه الإقناع بالحجة (بدلاً من السيف) أكبر الأثر لجذب أناس من الأقاصي كاليمن وعُمان للتحالف مع محمد والتحول إلى الإسلام. والمسلمون مأمورون أن يحملوا وينشروا رسالة الإسلام لكل البشرية، (بوصفهم خلق الله) في بقاع أرض العالم كلها، (بوصفها أرض الله). إن جُلّ جنوب شرق آسية، بما يشمل إندونيسية وماليزيا وبروناي والفلبين، بل حتى الأمريكيتين (انظر الفصل الرابع)، إضافة إلى جميع الأقطار جنوب الصحارى في إفريقيا قد تحولوا كلهم للإسلام سلمياً، عبر تجار ودعاة عرب أو مسلمين (ولا سيّما مسلمي اليمن وحضرموت والمغاربة ومسلمي غرب إفريقيا ولا سيّما مالي) الذين مارسوا الإسلام بصدق تام وطبّقوا مبادئه في معاملاتهم الأخلاقيّة و لتجارية على السواء. ولكن المسلمين يجب أن يبقوا حريصين لحماية الرسالة الإسلامية (الدعوة) لتصل إلى جميع بشر هذه المعمورة، وإلا فلزامٌ على المسلمين أن يدافعوا عن دعوة الإسلام، ويحاربوا المعتدين الذين يمنعون وصول الرسالة الإسلامية للناس. لم يُجبر المسلمون أعداءهم غير المسلمين على الإسلام؛ وأثناء انتشار الإسلام لم تُهاجم الكنائس أو صوامع اليهود، ولم يُقتل أحدٌ من القساوسة أو رُهبان الدير في الأرض التي فتحها الإسلام، كذلك لم تُهاجم النساء أو الأطفال أو كبار السن البتة.

لذا فإن الإسلام يؤيد اعتناق هذا الدين عن طريق الإقناع. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

ولم تكن الحرب مرغوبة البتة، ولكن المسلمين اضطروا إليها، إما لأنهم هوجموا أو لأن وجودهم مهدد بالفناء، ولذلك كان الردّ محسوباً لقتال قوات العدو المُعدّة والمُصمّمة على حربهم. وإذا أراد الآخر (العدو) صلحاً أو استسلم، فيجب أن تتوقف الحرب حسب الأمر القضائي القرآني[7]: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١).

كذلك فإن الإسلام هو دين الله خالق كل البشر، مما جعل المسلمين يطمعون دوماً في تحوّل أعدائهم للإسلام ومعاملتهم بالمعروف، رغبة في فلاحهم. قال تعالى:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٧-٨).

لكنّ آمال المسلمين تمتد لأكثر من ذلك حتى إلى أعدائهم المقاتلين لهم. وأنه في معركة أحد عام ٦٢٦ م تقهقر الجيش الإسلامي أول مرة (بعض المؤرخين يعدهم انهزموا) أمام جيش الكفار بقيادة ٣ من أبرع قياديهم: أبي سفيان (عدو النبي الأكبر)؛ خالد بن الوليد (ابن الوليد ابن المُغيرة عدو النبي الأكبر، وقد لعن الله الوليد وجعله من أهل جهنم ووثّق ذلك في القرآن)؛ وعكرمة بن أبي جهل (ابن أبي جهل عدو النبي الأكبر. وقد قتل المسلمون أبي جهل في معركة بدر سابقاً عام ٦٢٥ م، وهو أيضاً قد لعنه الله وجعله في نار جهنم ووثّق ذلك في القرآن). وعانى

النبي في معركة أحُد فقام يدعو الله لتعذيب وعقاب الكفّار ، لكن الله رفض الاستجابة لدعوة النبيّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وبعد عقد من الزمان عام ٦٣٦م (بعد وفاة النبي محمد ﷺ عام ٦٣٢م) وفي معركة اليرموك الفاصلة كان هؤلاء القادة ذاتهم بعد إسلامهم قد أصبحوا قادة الجيش الإسلامي أمام جيش الروم الهائل (تعداده ٢٤٠٠٠٠ جندي)، والمتفوق عليه عسكرياً عُدّة وعدداً ، ويمثل الإمبراطورية البيزنطية الرومانية (التي احتلّت أراضي شرق المتوسط العربيّة واستمرت بغزو حدود الجزيرة العربية): القائد العسكري العام خالد بن الوليد (بعد إسلامه)، أصبح قائداً عسكرياً سمّاه النبي (سيف الله المسلول): فقام خالد بتقسيم جيشه المسلم البالغ ٤٠٠٠٠ ألفاً إلى ٤٠ كردوساً (جمعها كرادس) يحوي كلٌ منها ١٠٠٠ مقاتل بقيادة قائد شجاع شديد البأس. ثم قام خالد خطيباً في جيش المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه وقال: (إن هذا يوم من أيام الله... أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يومٌ له ما بعده لو رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردّهم، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً)، عكرمة بن أبي جهل كان قائداً عسكرياً آخر لجيش المسلمين وقال يوم اليرموك: (قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفرّ منكم اليوم؟) ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمّه الحارث ابن هشام في ٤٠٠ من وجوه المسلمين، وشكّل عكرمة فرقة الموت (وعمّ عكرمة الحارث بن هشام أيضاً حارب المسلمين في أحُد واليوم هو سيد من علية المسلمين) أما أبو سفيان فكان في الـ ٨٠ سنة من عمره وهو سيّد القوم والآن قائد التوجيه المعنوي (شبيهٌ بدور النبيّ ﷺ في المعارك) وهو الذي اقترح تقسيم الجيش المسلم بكراديسه إلى ٣ أجزاء كُبرى فيسير ثُلثه فينزلون تجاه الروم، ثم تسير القتال والذراري في الثلث الآخر ، يتأخر خالد بالثلث الآخر المتحرك، فامتثلوا بما أشار به أبو سفيان (ونعم الرأي هو). كما وضع فرقة النساء في مؤخرة الجيش لصدّ من يتراجع من الجُند. ثم صاح أبو سفيان: (يا معاشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم).

وجعل أبو سفيان يقف على كردوس ويقول: (الله الله إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهمّ إنّ هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك).

وهدأت الأصوات يوم اليرموك فسُمِعَ صوتٌ يكاد يملأ العسكر يقول: (يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين)، كان صوت أبي سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وأوصى أبو سفيان ابنه يزيد وكان قائداً لفرقة كبيرة فقال له: (يا بُنيّ عليك بتقوى الله والصبر... ولا يكونن أحدٌ من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك).

إن نصر الله جاء بتكلفة كبيرة: استُشهد فيها ٣٠٠٠ من أبطال المسلمين، واستشهد عكرمة مع فرقة الموت الـ ٤٠٠، بمن فيهم عمّه الحارث؛ أما أبو سفيان ابن الثمانين فقد قاتل بعين واحدة، ثم أُصيبت عينه الثانية فعاش أعمى بقية عمره؛ أما خالد ، فبالرغم من جراحه الكثيرة فقد نجا؛ وهذا مثال حيّ كيف علّم الله نبيّه والمسلمين الصبر وعدم فقدان الأمل في أعدى أعدائهم الوثنيين؛ ويكشف أيضاً التحوّل الكامل، والتغيير الجذري الذي سببه الإسلام، والنبي في نفوس المشركين ليتحوّلوا للإسلام وليكونوا مُسلمين مُهتدين ومتفانين لدين الله[٢٠٣].

ومن الجدير بالذكر أنه في أثناء معركة اليرموك خرج (جُرجه) الجنرال الروماني، واحد الأمراء الكبار من الصف واستدعى خالد بن الوليد ، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما؛ ومن ثمّ دخلا في حوار فكريّ ممتع سأل فيه جُرجه خالداً: فيم سُمّيتَ سيف الله؟ قال (خالد بن الوليد):

(إن الله بعث فينا نبيّه فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً، ثم إنّ بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا كذّبه وباعده، فكنت فيمن كذّبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لي: أنت سيفٌ من سيوف الله سلّه الله على المشركين، ودعا لي بالنصر فسمّيتُ سيف الله بذلك، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين).

فقال جُرجه: يا خالد إلام تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا اله إلاّ الله وأنّ مُحمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل. قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فان لم يعطها. قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة: فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأوّلنا وآخرنا. قال جُرجه: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل مالكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: (إنا قبلنا هذا الأمر عنوةً وبايعنا نبيّنا وهو حيٌّ بين اظهرنا تأتيه أخبار السما ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحقّ لمَنْ رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا من العجائب والحُجج، ان يُسلم ويبايع، وإنكم انتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيّة كان افضل منا) فقال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك وإنّ الله وليّ ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جُرجه الترس ومال مع خالد وقال: علّمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فسنّ عليه قربة من ماء ثم صلّى به ركعتين. وحملت الروم عليهم مع انقلابه إلى خالد، ومن ثمّ قاتل جَرجه مع المسلمين ومع خالد ضد الروم البيزنطيين لساعات عديدة حتى غروب الشمس، وأُصيب جُرجه إصابةً مُميتة ومات مسلماً (رحمه الله) ولم يصلّ لله إلاّ تلك الركعتين مع خالد ﷺ)[1] البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧، ص ١٣).

لقد كان العربُ حقاً مادة الإسلام والقادة النموذجيين للإسلام. وشنّ الحرب في الإسلام حالة استثنائية لا يؤمر بها إلاّ للضرورة ضد مجاميع خاصة مثل[2][3]:

١. الذين يعتدون على بلد مُسلم.

٢. الذين يمنعون دعوة وانتشار الإسلام بالطُرق السلمية.

٣. المُرتدون. قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

تعدُّ مطالب المسلمين في الحرب بسيطة، كلّ الأعداء غير المسلمين المقاتلين أعطوا واحداً من ٣ خيارات: دعوة صادقة للإسلام فيكونون إخوانهم في الدين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، أو (إذا لم يقبلوا بذلك) فعليهم دفع الجزية لقاء حمايتهم، أو (إذا لم يقبلوا بذلك) فالمسلمون مضطرون لقتالهم في معركة فاصلة. إذا أُخِلّ بهذه القاعدة ذات الخيارات الثلاثة، فالجزية مُلغاة مع/ أو وجوب الخروج من الأرض المفتوحة[1][2].

* ففي معركة اليرموك عام ١٥ هـ. (٦٣٦م) كانت القوات الإسلامية بعد فتح حمص سنة ١٦هـ، تتوزع في اماكن مختلفة. فلما وصلت أنباء استعدادات الروم إلى أبي عبيدة عامر بن الجرّاح جمع القادة ليشاورهم ويستطلع رأيهم، وانتهى الحوار بينهم إلى انسحاب القوات الإسلامية من المدن التي فتحتها في موقع قريب من بلاد الحجاز، وأن تتجمع الجيوش كلها في جيش واحد، وأن يبعث أبو عبيدة بن الجراح الى المدينة يطلب المدد من الخليفة «عمر بن الخطاب». وقبل أن يتحرك: ابو عبيدة ابن الجراح بجيوش المسلمين، دعا «حبيب بن مسلمة» – عامله على الخراج – وقال له: «أردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما

كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا إذا لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما رددنا عليكم أموالكم، أنا كرهنا أن نأخذ أموالكم، ولا نمنع بلادكم.. فلمّا أصبح الصباح أمر أبو عبيدة قواته بالرحيل من حمص إلى دمشق، وقام حبيب بن مسلمة برد الجزية الى أهالي حمص، وبلغهم ما قاله أبو عبيدة: فما كان منهم إلا أن قالوا: «ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردّوا علينا، بل غصبونا وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا: لولايتكم وعَوْدُكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم». والعكس بالعكس (انظر أدناه).

- فعندما فتح قتيبة بن مسلم الباهلي سمرقند سنة٨٧هـ، وولّى عليها سليمان ابن أبي السري، فلما قدم سليمان إلى سمرقند قال له أهلها: إن قتيبة ظلمنا وغدر بنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا ليقدم وفد منا على أمير المؤمنين فأذن لهم. فوجّهوا وفداً منهم إلى عمر بن عبد العزيز وكان قد تولى الخلافة سنة ٩٩هـ، وشكوا إليه أمرهم. فكتب عمر الى سليمان يقول له: إن أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي، فاجلس لهم القاضي لينظر في أمرهم، فإن قُضي لهم، فأخرج العرب من معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة، فأجلس لهم سليمان القاضي (جُمَيْع بن حاضر) فقضى أن يخرج العرب من سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل سمرقند: بلى نرضى بما كان ولا نُحدث حرباً، وتراضوا بذلك.

- ثم إنه عام ١٠٠هـ، قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بعزل الجرّاح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خُراسان (بعد سنة و٥ أشهر)؛ لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفّار ويقول: أنتم إنما تُسلمون فراراً منها، فثبتوا على دينهم وأدّوا الجزية، فكتب إليه عمر (بعد عزله): إن الله إنما بعث مُحمّداً داعياً لا جابياً.

إنّ الدفاع عن الإسلام هو الذي أدّى إلى انتشار الإسلام العالمي (أو الجهاد في سبيل الله). ويقول مونتغمري واط في صفحة ٧ من كتابه: «تأثير الإسلام على أوروبا القرون الوسطى»: (والتأكيد الأخير هذا لا يعني أن دين الإسلام انتشر بالسيف إنه في الجزيرة العربية كانت القبائل الوثنية عُبّاد الأصنام هم الذين كانوا موضع الجهاد حقيقةً وأعطوا الخيار بين الإسلام وبين السيف لكن كانت هناك معاملة مختلفة لليهود والنصارى والمجوس الزرادشتيين وللآخرين الذين يؤمنون بإله واحد. فديانتهم عدت ديانات شقيقة للإسلام، بالرغم من الادّعاء بأن الملتزمين المعاصرين لكل منها قد ابتعدوا عن الأصل الحقيقي لديانتهم. ومع ذلك فإنهم ما زالوا مؤمنين بالربّ الواحد. وهدف الجهاد أصبح ليس تحويل هذه الشعوب للإسلام بل إخضاعها لحُكم الإسلام مع إعطاء وضع الحماية الشخصية: فهم إجمالاً أهل الذمّة والواحد منهم ذمّيّ... ولهم استقلالية داخلية تحت رؤوس ديانتهم مثل البطريق أو الراباي. وضريبة الفرد (أو الجزية) يجب أن تدفع للحاكم المسلم عن كل فرد في الجماعة... وأحياناً كانت هذه الضرائب أقل جداً من الحُكّام السابقين (الرومان والفرس)، وكان أمراً فخرياً واجباً للحكومة الإسلامية القيام بحمايتهم جيّداً، وعموماً لم تكن حالة المجاميع المحميّة هذه بغيضة، بل كانت لهم بعضُ المساوئ. لم يُسمح لهم بحمل السلاح ولا التزوّج بالمرأة المسلمة، وكانوا عادةً يُستثنون من مراكز الدولة العليا).

ولكن الذمّي حرفياً تعني الذي في الذمّة والضمير: أو الذي يُعتنى به حقيقةً. ثم إن كل مسلم عليه واجب دفع الزكاة للحاكم المسلم أيضاً: دفع الزكاة واجب لأنها واحدة من دعائم الاسلام الخمس، وهي جزء ثابت معين من الثروة (٢.٥٪) وكل نوع من المُلكية يتعين عليه الزكاة. وزكاة المسلم قد تفوق قيمة الجزية (الضريبة

الفردية الشخصية) التي يسهم بها الذِّمّي. مع ذلك فالذِّمّي قد يشعر أنه مواطن من الدرجة الثانية. وهذا يُفسّر التحول الجماعي الكبير من النصرانية إلى الإسلام. والحقيقة أن بعض المعاصرين المسلمين يعتقد أنه إذا شعر النصراني أو اليهودي بحيف من تسميته بالذِّمّي (في دولة الإسلام)، فيمكن إبدال لقب الذِّمّي بلقب المواطن لقاء مشاركة زملائه المواطنين المسلمين في الدفاع عن الدولة الإسلامية، كما فعل النبي محمد عند هجرته إلى المدينة حين عقد معاهدة المواطنة (انظر أدناه). وبإزالة الموانع العسكرية ورفع حاجز الخوف والتهديد النفسي وبعد وصول رسالة الدعوة الإسلامية للناس، إذّاك وحينئذ يكون الناس أحراراً فيما يعتقدون.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ويقول تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١).

ويقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

ويقول جلّ وعلا سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون ٦).

إنّ مفهوم (التسامح الديني) هو اختراع إسلامي صافٍ في الأصل، مارسه المسلمون في ربوع الخلافة الإسلامية، في التاريخ الإسلامي كلّه: فالكثير من الخلفاء اتخذوا أطباء غير مسلمين، ليكونوا أطباء البلاط الخاص من دون إجبارهم أو قهرهم للتحول إلى الإسلام.

والتسامح الديني هذا يرتبط تاريخياً بمحمد ﷺ نفسه. فعندما اشتدت مُقارعة وشبي مكة، أرسل أهل المدينة (يثرب) وفداً إلى محمد يعرضون عليه أن يكون قائدهم. ومحمد (بعد أخذ البيعة منهم) وافق ثم هاجر مع أتباعه: ويوم الهجرة عام ٩٢٢ م، يشكل حَدثاً حاسماً وبداية للتقويم الإسلامي. وهكذا فوثنيو المدينة اعتنقوا الاسلام وولدت أول دولة إسلامية: ومحمد أصبح الآن قائداً سياسياً ثم إنه قائدٌ ديني. فالقرآن ضمن بعض المُعطيات كالتوراة يشكل نظام أخلاقي ومنظومة قوانين: وفي كليهما لا يوجد تمايزٌ بين القوانين الدينيّة والقوانين الدنيوية

وقد ضمن محمدٌ ﷺ الحرية الدينية ليهود المدينة في معاهدة المواطنة التي تُمثّل حجر الأساس في مواطنة الدولة (بغضّ النظر عن التنوع العقدي والعرقي والعُنصري) وأول مَعلم للتسامح الديني في تاريخ العالم، تجسّد في هذه الدولة الإسلامية الفتيّة في الجزيرة العربية، كما تنصّ المعاهدة أيضاً أنّ مواطني المدينة ما داموا مُحاربين للدفاع عن دولة الإسلام عسكرياً ضدّ (أيّ غزو خارجي من قبل) مشركي مكة الوثنيين (من قريش)، فلهم نصيبٌ من غنائم الحرب توزع حسب ذلك: لكن المعاهدة جعلت الواجب إجبارياً على مواطني المدينة وهو التناصر على مَن دَهم يثرب وعدم نُصرة أو إيواء العدو (أو الأعداء) لدولة الإسلام هذه. انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، صفحة ٤٥٢–٤٥٤ لتفاصيل معاهدة المواطنة.

والقرآن يُقرُّ أن التوراة والإنجيل هي كُتبٌ مُسلهمةٌ ربّانياً أنزلها الله عبر أنبيائه. فبينما يُجبر الوثنيون على التحول إلى الإسلام بالقوة، فإن اليهود والنصارى، كونهم أهل الكتاب، ضُمن لهم حقّ العبادة بحرية. فالقرآن يُشيد باحترام بالشخصيات الرئيسة في تراث اليهود والنصارى: موسى، وداوُد، ومريم العذراء، وعيسى والآخرين. وهو يأمر باحترام بعض العناصر الرئيسة في قانون العهد القديم: تجنّب أكل لحم الخنزير، ممارسة الختان، وغيرها الكثير من نصوص القرآن تؤكد الإرث المشترك لهذه المعتقدات. وكلها ينتسب للأصل الحنيف إبراهيم الذي الإيمان بإله واحد وهو إيمان إبراهيم)، والقرآن يُقرّع النصارى واليهود المدّعين أن أفراد ملّتهم فقط هم الذين سيدخلون الجنّة. والقرآن لا يدعي حصرية دخول المسلمين: فالنصارى واليهود المتّقون لهم نصيبٌ بالجنة كذلك مثل المسلمين.

فالمولى جلّ وعلا يقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وبعد الفتح العسكري لسورية، فتحت جيوش المسلمين فلسطين سلماً، فالرجل المسؤول عن القدس كان البطريق صُفرانيوس (رجل الكنيسة الإغريقي) والذي عدّ ظهور نجم العرب علامة لغضب الربّ على ذنوب الحضارى. صُفرانيوس أصرّ على تسليم المدينة للخليفة عمر نفسه فقط: لذلك قدمَ عمر بن الخطاب عام ٦٣٧ أو ٦٣٨م. ومعاهدة عمر (العُهدة العُمرية) تمثل معلماً كبيراً في تاريخ البشرية، وأول حجر زاوية للتسامح الديني في العالم الخارجي (خارج) الجزيرة العربية. كانت بدايةً عظيمةً للعلاقات الإسلامية – النصرانية السليمة (مستوحاة من معاهدة المواطنة التي أبرمها النبي محمد).

ونصُّ المعاهدة أو العُهدة العُمرية هو الآتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (إيلياء هي القدس) من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها: انه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحدٌ منهم، ولا يسكنّ بإيليا معهم أحدٌ من اليهود لهذا الحطر كان سمة القانون الروماني: ويبين أن المُفاوضين النصارى قد طلبوا بشدة استثناء اليهود بوصفه شرطاً سابقاً لتسليم مدينة القدس سلمياً). وعلى أهل إيلياء أن يعطو الجزية كما يُعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم (البيزنطيين) واللصوص: فمن خرجَ منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه: ومنْ أقام منهم فهو آمن: وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومنْ أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم (البيزنطيين) ويخلّي بيعهم وصُلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وحتى يبلغوا مأمنهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومنْ كان بها منْ أهل الأرض قبل مقتل فلان (أهل الأرض هم الذين نزحوا إلى المدينة في أثناء الفتح)، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم (البيزنطيين)، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم: وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك (على المعاهدة): خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان (الخليفة المستقبلي) وكُتب وحضر سنة خمس عشرة هـ).

وبعد العُهدة العمرية في القدس وبعد الفتوح الإسلامية لسورية ومصر، فإن العلاقة بين المسلمين والنصارى في الشرق الأوسط كانت كما يُقال أرفع مقاماً من علاقة النصارى بالنصارى في أوروبا. حتى بعد اعتناق الشعوب للإسلام، فإن النصارى واليهود الباقين في العالم الإسلامي، كانوا يُميزون أنفسهم عن نصارى ويهود أوروبا أنهم أهل الكتاب الشرقيين؛ لذلك كان النصارى واليهود الشرقيون مع المسلمين هدفاً للمذابح المرتكبة من قبل النصارى الصليبيين في العصور الوسطى (انظر الفصل الرابع).

وعندما حكم المسلمون شبه القارة الآيبيرية (إسبانية والبرتغال الآن) قُرابة ثمانية قرون عاش اليهود والنصارى والمسلمون معاً في توافق كامل، وهو شيء فريد في أوروبا مما أجبر المؤلفين الكتابة عن ذلك مثل: (ميريا روسا ميتوكال) أن تكتب كتاباً بعنوان: «**جوهرة العالم – كيف خلق المسلمون واليهود والنصارى ثقافة التسامح في إسبانية القرون الوسطى**». نشره: باك باي بوكس، لمجموعة تايم ورنر بوك، في عام ٢٠٠٢.

إن حكم الإسلام في العالم الإسلامي ولا سيّما في إسبانية لم يسمح فقط بالمسامحة والتكيف للآخرين، ولكنه سمح بتعزيز واستذكاء اليهود والنصارى في حقول الشعر والفن والعمارة والطب والعلم عموماً: هذا التعايش بين المسلمين واليهود والنصارى المواطنين (أو كونفيفينثيا كما يسميه مؤرخو الإسبان) مما استدعى المتحف اليهودي في نيويورك في عام ١٩٩٢، إلى إصدار مُجلد حول هذه المرحلة المسالمة والتعايش المتسامح المنتج (تحت الحكم الإسلامي ما بين الأعوام ٧١١-١٤٩٢م) أسموه: «كونفيفينثيا - اليهود والمسلمون والنصارى في إسبانية العصور الوسطى». حرره: فيفيان ب مان، وتوماس ف جليك، وجيريلين د. دودس ونشره: جورج برازيلير.

لقد كان ما يُسمى بالاسترداد الإسباني والبابوية الرومانية الكاثوليكية هما المسؤولين عن استحداث محاكم التفتيش (المبنية على التمييز الديني) والمتصفة بأحلك مراحل التعصب وأكثرها وحشية التي لا توازيها مصيبة ولا يعرف التاريخ البشري لها مثيلاً.

إن محرقة إبادة اليهود الجماعية لم تُرتكب إلا في أوروبا؛ وكان العالم الإسلامي كما كان معهوداً به الملاذ الوحيد في العالم لليهود الفارّين مع غيرهم، من الاضطهاد الأوروبي.

بالرغم من تسلّم ملوك الإسبان بالله ووعود الشرف لتنفيذ الشروط المرتبطة بمعاهدة تسليم غرناطة (١٤٩١/١١/٢٥)، وبرغم خلاصة الامتيازات الـ ٦٧ الضامنة لحقوق المواطنين المغاربة من المسلمين واليهود (١٤٩٢)، لكن الملك فرديناند والملكة إيزابيلا كانا عازمَين سراً على نقض جميع عهودهم ومواثيقهم. وضعت مملكة غرناطة تحت الإدارة القشتالية بحكمها حاكمٌ قشتاليّ، وعومل القاطنون في غرناطة بداية بحسب المعاهدة وسُمح لهم بالبقاء على دينهم الإسلاميّ، وقوانينهم وقضاتهم، ولغتهم ولباسهم، وتمتعهم بممتلكاتهم، وأُعطوا ضماناً أن ضرائبهم لن تزيد على ما كانوا يدفعونه لحكامهم المغاربة المسلمين.

ولوحظت شروط المعاهدة طالما كان "هيرناندو دي تالافيرا" رئيس أساقفة غرناطة (١٤٩٣-١٥٠٧)؛ فقد تواصل مع المسلمين واليهود باللغة العربية عبر مترجمين، في حين حاول هو تعلم العربية، وأسس مدرسة لتدريب الدُعاة النصارى لخدمة ما عدّه جمهوراً يتكلم العربية بازدياد.

لكن إيزابيلا عيّنت "فرانسيسكو جيمينز دي سيسنيروس" مبعوثاً من طليطله ليلحق برئيس الأساقفة ويعجّل تنصير غرناطة. تحوّل "سيسنيروس" في غرناطة عام ١٤٩٩ (ومن ثم صار رئيس محاكم التفتيش المُستقبلية)، ثم قام بمجانبة مؤسسة تالافيرا المبنية على الحوار الصبور، مُؤثراً تنصير الجماهير تحت الضغط عن طريق المواجهة والصدام. وكي لا يخطئ أحد من مسلمي غرناطة رسالته، قام "سيسنيروس" بحرق نسخ من القرآن كمئرابين في نيران مشاعل في الفناء. وباشتعال نسخ كتابهم المقدس، اتّقد معه استياء المسلمين غضباً. وتمّ تحت الضغط تنصير حشود منهم. وهذا الضغط وحرق كتب الإسلام المقدسة علناً أدى إلى ثورة المسلمين المغاربة. بتحريض من "سيسنيروس" وآخرين، قام فرديناندو وإيزابيلا بسرعة بإبطال حقوق المسلمين المنصوص عليها في معاهدة التسليم بعد أقل من عقد، مُصدرين مرسوماً يطالب المسلمين واليهود بالتنصّر أو النفي طرداً.

وتمّ ترحيل (طرد) جميع المسلمين الذين تناهز أعمارهم الـ ١٤ سنة ممن لم يقبلوا بالتعميد (في ١٢ شباط ١٥٠٢) من مملكة غرناطة، وكانوا نحو ٣ مليون مسلم. ولم يُسمح لهم بالخروج إلى شمال إفريقيا بل يسمح لهم بالذهاب فقط إلى مصر أو أن يتركوا قشتالة من حدودها المتاخمة لبيسكاي.

أُجبر الباقون من المسلمين على التحوّل إلى النصرانية قسراً، وسُمّي هؤلاء المُتنصّرون الجُدد "موريسكوس" أو الموريسكيّون، ودخلوا تلقائياً تحت عناية محاكم التفتيش! فأصدر الملك شارلس الخامس (١٥٢٥؛ مرسوماً آخراً

يُحرّم استعمال الأسماء العربية، أو التزيّن بالمجوهرات بتصاميم عربية؛ لم يُسمح إلا بالتحلي بالصُلبان والصور المصرانية. وحُرّمت عليهم علاقات الزواج بحسب معتقداتهم القديمة (الإسلامية). وفي ١٥٥٦، صدر مرسوم يقضي باستعمال اللغة القشتالية، وتحريم اللغة العربية في التواصل والتعامل؛ تحت عدد من العقوبات الصارمة جداً. إنّ هذه الإجراءات الصارمة أسرعت إحداث ثورة جديدة عام ١٥٧١، مما أدى إلى تشتيت المغاربة عبر المقاطعات القشتالية (تحضيراً لطردهم النهائي من إسبانية في ١٦٠٩/١٦١٠). بالرغم من أنّ المؤرخين الأسبان واليابوية تعترف أن ضحاياها في محاكم التفتيش لا يتجاوزون بضعة آلاف، ولكن كثيراً يعتقدون أن عدد الضحايا يصل إلى الملايين في أثناء مدة التعصب الديني المتمثل بمحاكم التفتيش الإسبانية الوحشية.

محاكم التفتيش الإسباني

تحرق الكتب الممنوعة حسب قوائم الكتب الصادرة المطبوعة في إسبانية والمُعاد طبعها تباعاً في ١٥٥١، ١٥٥٩، ١٥٨٣، ١٦١٢، ١٦٣٢، و١٦٤٠

وقد شملت هذه القوائم مجاميع واسعة من الكتب، وبالأخص الكتب المكتوبة باللغة العربية، مثلاً: نسخ القرآن الكريم، والكتب الإسلامية واليهودية المكتوبة بالعربية، إضافة إلى تراجم الإنجيل باللغة المحلية. حيث أطلق شعار "بلادٌ واحدة، وحاكمٌ واحد، واعتقاد واحد" كان هذا شعار "توماس التوركيميدي" مستشار الملكة إيزابيلا، الذي صار أول مراقب عام لمحاكم التفتيش الوحشية والدموية

محاكم التفتيش وأنواع التعذيب: تعرض ١٦ صورة نادرة:

١.

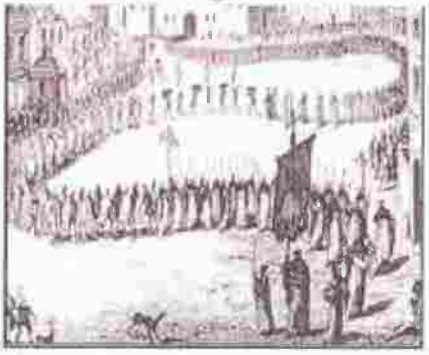

مراسيم المحاكم المسماة (أوتا دا ﭫ)، حيث يُقتاد ضحايا التفتيش إلى مصيرهم المحتوم في مراسيم دينية، وبعد "تقرير الاعتقاد" تُحرق الضحايا حتى الموت.

٢.

غرفة من غرف التعذيب لمحاكم التفتيش المقدّس.

٣.

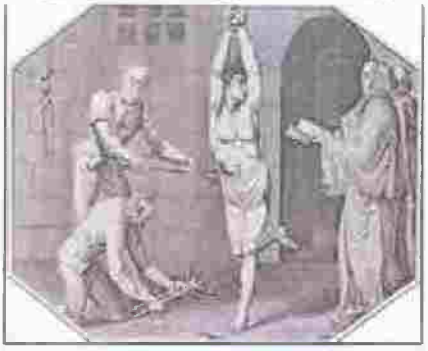

تمزيق اللحوم البشرية: اثنان من القساوسة الطاعنين في السنّ وهما مبتهجان بنزع الجلد وتمزيق اللحم. تعلمّت الكنيسة الكاثوليكية بأنّ الإنسان يستطيع العيش حيّاً عند نزع جلده حتى خصره. وغالباً ما تحمى آلات التمزيق بالنار حتى الإحمرار. وتستخدم لتمزيق ثدي المرأة والأعضاء التناسلية للجنسين.

٤.

تعليق الضحايا بالمقلوب وذلك في أثناء تعذيبهم في محاكم التفتيش الوحشية الدموية التي أدارها القساوسة الدومنيكان واليسوعيون).

٥.

الدولاب، حيث يُمدّ الضحية ويُمطّ وهو عارٍ، ووجهه للخارج، ويداه وساقاه ممدودتان، ويُشدّ على الدولاب بأوتاده أو بحلقات حديدية. ثم يُدار الدولاب ويمرّ الضحية على نار أو على مسمار تحت الدولاب لكي تحرق أو تمزق لحم الضحية.

٦.

الإغراق بالماء: تستخدم نقالة على شكل طاولة خاصة بمفاصل لحني زاوية الضحية للخلف لزيادة دخول الماء إلى أنف السجين وفمه، لتقوية الإحساس بالاختناق، ثم لرفعه للأعلى بسرعة في حالة توقف تنفس السجين (لإطالة معاناته).

٧.

تعليق "التنصرين" عرايا من الخلف في أثناء التفتيش لإنتزاع الاعترافات من هؤلاء "الهراطقة"!

٨.

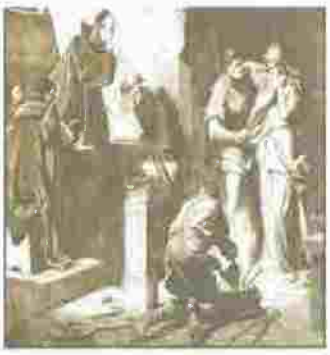

الاعتداء الجنسيّ على النساء (وتقطيع ملابسهن) في أثناء تقديمهن للتفتيش.

٩.

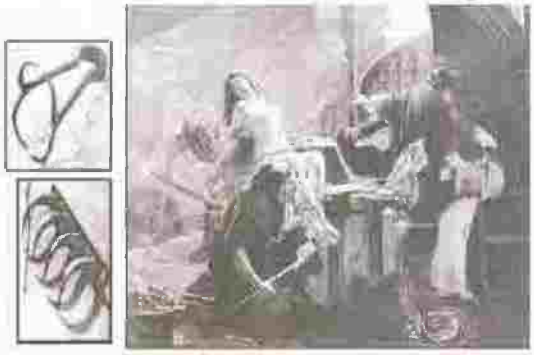

كرسيّ التعذيب الحديديّ المرصّع بالمسامير: تربط الضحية عارية، وتشعل النار تحت الكرسي. وتوضع اجسام ثقيلة على الضحية لزيادة الألم بسبب المسامير مع ضربات المطرقة. وغالباً ما تستخدم أيضاً الات تمزيق اللحم أو الة نهش لدي الضحية (انظر ليمين الصورة).

١٠.

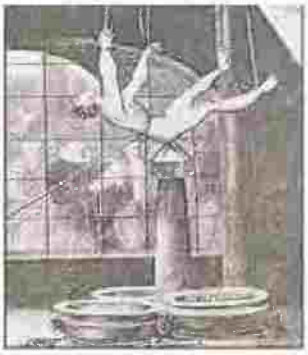

مهد اليهود الهزاز: ترفع الضحية بالحبال والقيود ثم تنزّل على جسم حاد. يجلس الأثرياء للفرجة وكانهم يتفرجون على مسرح الأوبيرا! لرؤية الرجل المسكين يموت ببطئ وهو يدور على الجسم المدبب الحاد. ويعلق الرجل بالحبال ويدار لوضعه على مخرجه أو على فرج المرأة لزيادة الألم القاتل!

١١.

المخلعة حيث يوضع الضحية افقياً وهو عار على المخلعة او السلّم. تستخدم الحبال لربط ساعديه وساقيه بشدة (كشدّ رباط وقف النزيف)، وتستخدم الة ميكانيكية مثل كرانك لتدوير الدولاب وتشديد ربط الحبال لأجل تمديد وبسط جسد الضحية حتى تتخلع مفاصله. تعدّ الكنيسة هذا "واحداً من وسائل التعذيب اللطيفة"!

١٢.

الجزمة الساحقة أو بروديكوين: كانتا تستخدمان لسحق الساقين وتهشيمهما بشدّ الجهاز باليد وتضييقه او باستخدام المطرقة في الإسفين لتهشيم العظام حتى ينفجر نخاع العظم منه.

١٣.

المقصلة الحديدية: آلة وحشية وهي تابوت قائم بمسامير ناتئة من سطحه الداخلي. وله بابان تفتحان من الأمام (باب بـ ٨ مسامير ناتئة، وباب بـ ١٣ مسماراً ناتئاً). وبمجرد دخول الضحية تغلق البابان. وهذه المسامير موضوعة استراتيجياً بحيث تنقب العديد من الأعضاء الجوفية الداخلية. لكنها مسامير قصيرة نسبياً لكيلا تكون الجروح قاتلة مباشرة. ويبقى الضحية معانياً يتخب بدمه وينزف لساعات عدة قبل موته البطئ هذا. وهناك مسماران إضافيان موضوعان خصوصاً لسمل العينين.

١٤.

مهشمة الجمجمة: لا تحتاج لشرح!

١٥.

حرق القدمين: وذلك باستعمال الزيت، والزبدة، والدهون على القدمين قبل قليهما وتحميصهما على النار. وتستخدم شاشة عاكسة للتحكم أو لزيادة الألم عند التعرض للنار بتكرار لزيادة المعاناة. وبعض الضحايا يجبرون على لبس جزمة من جلد أو من حديد ويسكب داخلها الماء المغلي أو الرصاص المذاب.

١٦.

الحرق على الوتد هو الخطوة الأخيرة للتعذيب القاتل بالنار. وتستخدم شوكة المهرطقين (أحقر ليمين الصورة) لإسكات الضحية عن الكلام وهو/ هي في الطريق للإحراق على الوتد، حتى لا يتفوهوا بما حصل لهم في غرف التعذيب أو للدفاع عن أنفسهم بأي طريقة من الطرق.

ولكن حتى المتحدرين من سلالة هؤلاء المسلمين القشتاليين والغرناطيين المتنصّرين بالقوة في بدايات ٥٠٠، بقوا يعتام (ولو سراً) محافظين على معتقدهم الإسلامي السابق وعلى عاداتهم الإسلامية، كما تغنّا وعبّر عنه الشاعر: «كان الخوف من الموت والحرق بالنار هو الذي أجبرنا على التنصّر... نحن لم نقبل بالتحول من ديننا، ولم نؤمن بشيء مما يقوله عن أمر التثليث».

وبقيت العربية هي لغة غرناطة الحية لقرن من الزمان بعد إجبار المسلمين على التنصّر قسراً. وفي ١٦٠٩، قام ملك إسبانية بطرد هؤلاء الموريسكيين المتمردين من إسبانية نهائياً، ابتداءً من تلك السنة. لم يعد تنصّر المسلمين

واليهود مرفوضاً فقط، بل صار محرماً عليهم أيضاً أن يكونوا منحدرين من سلالة مسلمة أو يهودية، حتى لو كانت هذه الأسرة قد تنصّرت!!

وفي أعقاب الحوادث الكارثيّة لمراكز التجارة العالميّة (في البُرجين التوائمين – نيويورك) (٢٠٠١/٩/١١)، وتحادث قطار مدريد (آذار ٢٠٠٤)، كتب «كريس لوتي» المدير الإداري الناجح لشركة مورجان وشركائه (الممتدة على ٣ قارات) كتابه الرائع والمعنون: «عالمٌ مندثر – المسلمون والنصارى واليهود في إسبانية العصور الوسطى» (يعني عالم الأندلس المندثر) والمطبوع في مطابع أكسفورد الجامعية عام ٢٠٠٦[٧].

(بالرغم من أنّ المسلمين والنصارى واليهود يعبدون الربّ نفسه الذي أوحى إلى إبراهيم، إلاّ أن هذه الأسرة المشتركة تخفت (تضعف) في أعينهم أمام الفروق الفاصلة لهذه الأديان الثلاثة.

هذه الأديان التوحيدية الثلاثة لا تشترك في انتسابها فحسب إلى إبراهيم فاليهود والنصارى والمسلمون يشتركون في دم إبراهيم عبر رؤوس أنبيائهم: موسى وعيسى (كليهما من ذرية إبراهيم من زوجته سارة)، ومحمد (الحفيد المباشر لإسماعيل بن إبراهيم من زوجته هاجر)، بل أيضاً في ممارسة طقوس الحج، فقبل القرن التاسع ارتحل النصارى أول مرة إلى سانتياجو دي كومبوستيلا (انظر الصورة)، والمسلمون الأتقياء كانوا يحجّون إلى مكة، واليهود الأتقياء إلى بيت المقدس للحج.. وفي هذه الأديان الثلاثة فإن رحلة الحجّ تُجسد مجازياً أعمق الأشواق الإنسانية.

فقط حفنة صغيرة (منّا) هي المُستأثرة بمعرفة ما إذا كانت فروقنا العقديّة غير التوفيقية طوال حياتنا الأرضية وعند الاستنارة بنور الحق المطلق، سوف تتوافق يوماً ما بشيء من العقلانية، التي – نحن المسلمين والنصارى واليهود – لا نستطيع بشرياً إدراكها (اليوم). وحتى ذلك الحين، يبدو أننا سنعاني هذه الحقائق المتنافرة والموجعة: فإمّا عيسى هو المسيح (المنتظر) أو لا، وإمّا محمد هو نبيٌّ أو لا)[٧].

للمشهد الافتتاحي لأعمال العهد الجديد للحواريّين يروي حادثة مُروّعة. إذ اجتمع عيسى المرفوع بحواريه وبينما كانوا ينظرون إليه، رُفع وغاب وسط غُمامة عن أنظارهم». وقُبيل صعوده، أفصح عيسى عن آخر تعليم له: ستكونون شُهداتي... إلى آخر الأرض». فأخذ الحواريّ جيمس، سانتياجو بالإسبانية، التعليم حرفيّاً. وبقاياه المزعومة اليوم تُبجّل في بلدة إسبانية صغيرة تحمل اسمه، سانتياجو دي كومبوستيلا. (وتعني كلمة: "كومبوستيلا": «ميدان النجوم» إشارة لموضع دفنه).

الكنيسة دي كومبوستيلا

وهي تقع على بقعة من ثمانية عشر ميلاً من نهاية الأرض! يُقال إن موضع الدفن هذا اكتُشف بين ٨١٨–٨٤٢ ميلادي، ومن ساعتها صار مقام ضريحه كعبة قاصدي الحج، ولكن التوثرات التي مزّقت إسبانية العصور الوسطى تنعكس بمرآة الصورة الانقسامية لحامي إسبانية (وراعيها وناصرها) سانتياجو (القديس جيمس). جيمس (هذا) كان وما زال إلى اليوم قريباً دائماً إلى الخيال الإسباني، طريق الحجّ هذا والذي عمره ألف عام، يتلوّى

كالثعبان في الشمال الإسباني إلى سانتياجو كومبوستيلا، وهي تقليدياً موضع هجوع بقايا جيمس الاورشية، التي هي، بعد روما، أهم موضع لحجيج أوروبا. وكنائس إسبانية في كل مكان تحتفظ بصورة جيمس في قطع مذبحه (مذبح الكنيسة: الثار) وفي الواحها ومنحوتاتها.

وتصوير واحدٌ مُحزٍ يظهر أحياناً في هذه الكنائس على طريق الحجيج: جيمس يمتطي حصاناً، وذراعه اليُمنى مفتولة العضلات ترفع سيفاً على إنسانٍ مُعمّم داكن السُحنة جاثم مرتعد تحت حوافر جواده المطهّم الخنفيّة. هذا التصوير الأيقونيّ واضحٌ اليوم، كما كان لحجيج القرن الثالث عشر الميلادي: هذا هو سانتياجو ماتاموروس، القديس جيمس قاتل المغاربة (يعني المسلمين)، راعي الاسترداد الصليبي الإسباني! جيمس قاتل المسلمين، هذا يجسّد خلفية واحدة لهذه القصة: خلفيّة الكره الدينّي الذي مزّق إسبانية العصور الوسطى، وما زال شبحه يطارد البشرية.

وإضافة إلى ذلك وبدل هذا الحواريّ القاتل العنيف، يقف تمثالٌ أكثر هدوءاً للقديس جيمس حارساً على الكاتدرائية الكبيرة (كاتدرائية هي كبرى الكنائس) في سانتياجو دي كومبو ستيلا. سانتياجو بيرجرينو (أي القديس جيمس الحاجّ) الذي لا يتقلّد سيفاً، ولكنه يحمل فقط قانون الإحسان العظيم: «أحبّوا جيرانكم كحُبّكم لأنفسكم» وهو أمرٌ بالمعروف يُبجّله المسلمون والنصارى واليهود على السواء.

لوحات للقديس جيمس قاتل المسلمين الذي يُعدُّ راعي الحروب الصليبية لاستعادة إسبانية

مجموعة صور للقديس جيمس الحاجّ الذي يحب الخير والسلام (ولا يتقلد سيفاً)

لذا جيمس قاتل المسلمين يجد نفساً ثانية (أو أنا ثانية) في جيمس الحاجّ: فبينما يُلهبُ الأول الكره والحرب المسعورة، يُنشئ الثاني التوافق والانسجام المؤدي لحبّ الجيران.

لكن؛ مع إبادة الحكم الإسلامي في إسبانية عام ١٤٩٢ م، يبدو أن القديس جيمس قاتل المسلمين قد عاش وتشتر استخدامه العسكريّ، وكان الواجب اعتزاله لصالح القديس جيمس الحاج.

لكن سانتياجو المُقاتل قد جُنّد لمقارعة عدوٍ جديد (أمريكيو العالم الجديد)؛ وبقاياه لا تزال ترنّ بصداها في أطلس أمريكا الجنوبية، من الاسم الحميد لمدينة سانتياجو في شيلي، إلى اسم البلدة المكسيكية المشؤوم ماتاموروس (قاتلة المسلمين). بالفضل الجزئي لذهب إنكا (حضارة المكسيك القديمة)، دخلت إسبانية ما يسمّيه المؤرخون العصر الذهبي. العصر كان ذهبياً في جانب واضح وحيد: نهب المعادن النفيسة من مستعمرات العالم الحديث، وطلي مذابح الكنائس بالذهب، وتمويل إسبانية بالمال في نزاعاتها الأوروبيّة. ولكن، في الجوانب الأخرى فإن عنوان العصر كان أقلّ عصر ذهبي على أقل تقدير ناقص (غير مكتمل): لأن ذلك العصر الذهبي تمتّعت به إسبانية.

أما العصر الذهبي الإسلامي لإسبانية فإنه بارك أوروبا بطرازات جديدة في فن العمارة، والرياضيات، وتصنيع الخزف (سيراميك)، والزراعة، والفلسفة، والطبّ، وعلم الفلك. وهذا غيض من فيض في تسمية بعض من فروع المعرفة الكثيرة. العصر الذهبي اليهودي لإسبانية لغير مستقل بل في عصر إسبانية الإسلامية؛ غذّى أوروبا بالجالية اليهودية الثرية والكبيرة، وصاحبة الإنجازات وعن طريق الميمونيين وموسى بن ليون، الذين ورّثوا أعمالاً رائعة أثرّت جذرياً في التفكير والعبادة اليهودية. والإسهامات الخالدة لمسلمي ويهود إسبانية العصور الوسطى كشفت الثمرة النفيسة للعصر الذهبي الثالث لإسبانية (وكشفت عورتها). بعد التطهير العرقي لغير النصارى، والمثابرة لتوحيد الجنس (النصراني) أصبح النقاء إسبانية مع الثقافات الغربية يحصل حصرياً خارج الحدود الأيبيرية، وبوضوح في مستعمرات العالم الجديد. وماذا استخلص النقاء العصر الذهبي هذا مع الحضارات الأخرى؟ كان في أغلبه الذهب فقط. إن زوّار إسبانية في كل مكان يتذكّرون بفخر كيف استفادت إسبانية مرةً من الثقافة بالحضارة الإسلامية، من كاتدرائية قرطبة المرفوعة من أرضية الجامع الكبير بقنطراته وأقواسه المدوّخة الرائعة (جامع قرطبة)، إلى منارة الموحدين المهيمنة على آفاق إشبيلية المحوّلة إلى برج ساعة الكاتدرائية، بل حتى الكنائس المغربية في الأقاليم الشمالية التي لم تُحكم قط بإسبانية المسلمة. الزائرون لبقايا حضارة الإنكا في (ماشو بيتشا) لا يستطيعون إلاّ رؤية عمارة الإنكا، التي كان بالإمكان أن تسهم بعمق في تقنية البناء والحجارة الإسبانية. لكن إسبانية العصر الذهبي (الثالث) هذا ما عادت للقاء ولامتصاص عطايا الحضارات الأخرى إلى أرضها بل فقدت البراعة في ذلك وفي كل مكان. مع ذلك فإذا كانت الثقافات الأجنبية ما عادت تبارك إسبانية، فإن المنفيين والمغتربين من إسبانية قد باركوا البلدان التي احتضنتهم[٧].

أما فيما يخص الإسلام، فعندما يتحوّل غير المسلم إلى الإسلام، فإن الإسلام يجُبُّ «يهدم» ما قبله من الأعمال الشريرة وكذلك الهجرة في سبيل الله؛ والحجّ إلى البيت الحرام في مكّة. وحتى الماضي الإجرامي يُغفر له مباشرة حال النطق بشهادة «لا إله إلاّ الله، مُحمّد رسول الله»، بناءً على تقرير النبي محمد: «**الإسلام يَجُبُّ ما قبله**»، فيصبح هو أو هي مولوداً مسلماً جديداً بلا خطيئة. إضافةً إلى ذلك فالذين آمنوا بالإسلام ثم ترجموا إيمانهم إلى أعمال صالحة، فإنهم سيؤجرون أجراً مُضاعفاً من الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠).

لنأخذ مثلاً: عكرمة بن أبي جهل، المسلم البطل في معركة اليرموك، هو ابن أبي جهل، العدو اللدود للنبي ﷺ (أبو جهل قُتل في معركة بدر بين المسلمين ومُشركي مكة الوثنيين – انظر فوق)؛ وعكرمة مثل أبيه كان عدواً

شديداً للإسلام والمسلمين. وبعد فتح مكة عام ٦٣٠ ميلادية، أباح النبي ﷺ قتل (٦) فقط من الوثنيين حتى وإن تعلّقوا بأستار الكعبة، بسبب شدة عداوتهم للإسلام (وعكرمة كان واحداً منهم). فركب عكرمة البحر (الأحمر) للعبور إلى بلاد الحبشة هارباً، ولكن (عند توجههم) أصابتهم عاصفةٌ هوجاء مُباغتةٌ سفينتهم، التي تلاطمتها أمواجُ البحر من كلّ جانب، فظنوا أنهم قد أحيط بهم. فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم ههنا شيئاً. فقال عكرمة (في نفسه): (والله لئن لم ينجّني في البحر إلاّ الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهمّ إنّ لك عليّ عهداً إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي مُحمّداً حتى أضع يدي في يده، فلا أجدنّه إلا عفواً كريماً. وهكذا أنجاهم الله إلى شاطئ الأمان، فتوجّه عكرمة إلى رسول الله محمد ﷺ (وروى قصّته هذه) واعتنق الإسلام (كما عاهد الله) ثم صار مُسلماً كاملاً «رأيتُ لأبي جهل عِذقاً في الجنّة». فلما أسلم عكرمة، جاء في حديث أم سلمة (إحدى زوجات النبي ﷺ) قالت: قال رسول ﷺ:

«رأيت لأبي جهل عِذقاً في الجنّة. فلما أسلم عكرمة، قال: يا أمّ سلمة، هذا هو». (الإصابة في معرفة الصحابة).

أما بالنسبة للمسلمين الذين يقترفون الذنوب، فالتوبة متاحةٌ وسهلة أيضاً. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (التحريم) ١٨

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحقّ آدميّ فللتوبة ثلاثة شروط:

١. أن يُقلع عن المعصية (مباشرةً – في الحاضر).

٢. أن يندم على فعلها (في الماضي).

٣. أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً (في المستقبل). فإن فُقِدَ أحدُ هذه الشروط الثلاثة لم تصحّ توبتُهُ. وإن كانت المعصية تتعلّق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة.

٤. وأن يبرأ من حقّ صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدّ قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبةً استحلّه منها.

إنّ التسامح الدينيّ الحقيقيّ لم يُمارس قبل أو بعد الإسلام في أيّ مكان بالعالم. لذا فالناس (بلا إكراه أو قسر) أحبّوا بساطة الإسلام وسهولة تطبيق مبادئه؛ وتعبيره الحياتي في حريّة الاعتقاد، والعدل، والمساواة والأخوة الإسلامية التي طُبّقت في الممارسة الواقعية لا مجرد النظريّة؛ بناءً على ذلك تحوّلوا للإسلام. ثم إنهم أحبّوا لذلك العرب واللغة العربية بوصفها وسيطاً لانتشار الإسلام والتواصل الإسلامي. ثم غدت اللغة العربية حاجةً مُلحّةً لأداء الواجبات الدينيّة (كالصلوات الخمس اليومية والدعاء بسؤال الله للبركات والعطايا)، ولغة تداول عامّة في كلّ حقول الحياة لأن الإسلام نفسه هو منهج حياة شامل. والحقيقة فإن مصطلح «الجهاد» يجب أن لا يُخرَج عن مضمونه (أو يُساء فهمه كحرب مقدّسة) في ضوء هذا المفهوم الإسلامي النبيل الواضح؛ فالجهاد هو بذل أقصى الجهد ضد شهوات النفس مُكافحاً دوماً لإرضاء الله (الجهاد الأكبر هو جهاد النفس) (انظر كلمة جهاد في قاموس الفردوس). ثم إن الجهاد ليس كفاحاً مَبنياً على الفخر القومي ولا الكسب المادي ولا التوسّع الإقليمي.

ثم إن الله قد عرّف النصر بهداية الناس للاستسلام لله، أي تحوّلهم لدين الإسلام الحق؛ بمعنى آخر فإن النصر لله لا لمنفعة أحد الفريقين المتقاتلين. الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ (النصر) ١-٣.

فالنصر يتم تحت راية الإيمان وليس تحت أي راية أخرى؛ والجهاد هو خالص لله وحده ولنصر دينه وشرعه، وحماية دار الإسلام (المذكور سابقاً)، لا لأي غرض آخر. فليس النصرُ نصراً لمكتسبات مادية، ولا لغنائم أو شهرة ولا لمجد الدولة ولا لشرف القومية، ولا لمجرد حماية أسرة واحدة إلا إذا كانت حامية من القهر الديني. روى أبو موسى قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: الرجلُ يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله. (رواه البخاري).

إن شرف الشهادة يتحقق فقط عندما يقاتل الإنسان في سبيل الله (كسبب نبيل وحيد يستحق القتال)، وإذا قتل الإنسان لأي سبب آخر، فإن هذا الشرف لا يتحقق. ولمّا كانت كل الأرض هي أرض الله، ولمّا كان كلُّ البشر والكون وكلُّ ما هو موجود هو خلق الله، لذلك فإن المسلمين لا يحبّون تسمية توسع الأقاليم الإسلامي بالإمبراطورية كإمبراطورية الفرس والروم؛ وبدل ذلك يشيرون إليها بالخلافة لأنها الأرض التي يحكم فيها الخليفة (عبدُ الله) بالقوانين الربانيّة للشريعة الإسلامية التي تكون هي السائدة والمعمولُ بها ويكون الحاكم في هذه الأرض حاكماً بالقوانين التي شرّعها الله.

كذلك فإن المسلمين يشيرون إلى الربح في المعركة بالنصر أو الفتح (ليس له مثيلٌ في اللغة الإنجليزية ولكن أظهر أو النصر بمعنى فتح البلاد لتصل رسالة الله إلى البشر هي الأقرب بالإنجليزية)، وليس نصراً بمعنى إذلال الآخرين، أو احتلال أرض الناس؛ لأن نصرهم هو في سبيل الله والأرض أرضه ومن هنا فليس هناك معادلة رابح وخاسر لكن مُعادلة الرابح والرابح (فالكل رابحون لأن النصر لله وحده ولنصره).

كذلك فإن الأرض الأبَ أو الأرض الأمّ هو الموضع الذي يسود فيه الدين الإسلامي وطريقة الحياة الإسلامية وشريعة الله؛ وهذا المعنى فقط للأرض الأم هو الذي يليق بالإنسان. كذلك فإن معنى القوميّة يجب أن يكون مبنياً على المعتقد وطريقة الحياة وهذا الانتماء وحده هو الذي يليق بكرامة الإنسان.

التصنيف بناءً على الأسرة والقبيلة والأمّة والرسّ (الجنس) واللون والأرض هي مُخلّفات الإنسان البدائي؛ هذه المجاميع الجاهلية تنتمي لزمنٍ كانت القيم الروحيّة للإنسان في مرحلتها الابتدائيّة. النبي (صلى الله عليه وسلم) يمحيها «مُنتنة» تشمئز منها روح الإنسان.

وهكذا فالإسلام هو دين الله الكامل الشامل والمنهاج المتكامل للحياة منذ الأزل؛ لذا فالإسلام هو للبشرية كلها وليس لأمّة معيّنة أو رسّ (عرق) أو ثقافة خاصّة. والله سبحانه وتعالى يؤكّد هذه الحقيقة مقرّراً أن الهدف من التنوع الإثني البشري هو استئناس التعارف المُسالم ليعضهم بعضاً، ومؤكّداً أن المتقين هم أفضل الناس جميعاً، قال جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: ١٣).

وعندما ادّعى اليهود أنهم شعبُ الله المختار على أساس عرقهم وقوميّتهم، ونسبهم لإبراهيم، رفض الله سبحانه وتعالى ادعاءهم وأعلن أنه في كلّ مرحلة زمنية وفي كلّ عرق وفي كل أمّة هناك خصيصة واحدة فقط (مشتركة) وهي الإيمان: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٥-١٣٨).

والله يُعلن أن شعبه المُختار حقيقةً هي الأمة المسلمة (عبادهُ المطيعون) الذين إنّما اجتمعوا تحت راية الله دون اعتبارٍ لفروق العرق والقومية واللون والأرض. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران: ١١٠). ويقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

ويقول جلّ وعلا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧-٦٨).

وأثناء الانتشار العالمي للإسلام (سواء بالسلام مع/ أو بالقوة التي اضطر لها المسلمون) وُلد وتعزّز مفهوم الأُمّة الواحدة أدخل مفهومها أول مرة في هذا العالم بوصفها أسرة عالمية كبيرة واحدة تسكن عالماً واحداً (تُسمى اليوم بالقرية العالمية أوالمدينة العالمية). لذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء: ٩٢).

والأمة أفضل مما تُترجم به هنا هو الإخوّة: لأن المجتمع والعرق والقوم والناس كلمات تعني مفاهيم أخرى ولا تتطابق تماماً مع مفهوم الأمّة. ثم إن الدين وطريقة الحياة هي معانٍ مُستخلصة، قد تُستعمل في مواضع أخرى لكنها أقل تناسباً هنا. لذلك فهي تعني أناساً تختلف طباعهم وفضائلهم، مختلفون كثيراً في الوقت والعرق واللغة والظروف والتاريخ وفي العمل الذي يؤدّونه. ولكنهم يكوّنون اخوّة رجالاً ونساءً معتصمين باعلى خدمة لله؛ وهم سبقوا التشكيل النهائي المتكامل للأخوّة في الإسلام. وهذه الأمّة الواحدة تتفق مع عقيدة الإله الواحد؛ وحقاً إن الأمّة الواحدة هي تعبيرٌ للإله الواحد. فالمسلمون عرباً وأعاجم، رجالاً ونساءً، كباراً وشباباً، من الشرق أو من الغرب صاروا أمّة واحدة ترتبط بالإسلام أو الاستسلام لإله واحد. ثم إن هذه الأمّة تمتد في أعماق التاريخ منذ خلق آدم وإلى يوم القيامة. اقتصاد هذه الأمّة يعتمد تماماً على منظومة الاكتفاء الذاتي المستوحاة من تعاليم القرآن والنبي محمد (هذا الموضوع خارج نطاق هذا الكتاب المُركز على مغامرات اللغة العربيّة).

ومن هنا شعَرَ المسلمون أنهم مؤتمنون في قدر الله لحمل هذه الرسالة العالمية وليكونوا جزءاً فاعلاً في تاريخ البشريّة الذي يحتاج إلى تقويم المسار وإلى الهداية للطريق والطريقة المستقيمين. فالإسلام جهّز المؤمنين به بتفسير الله الشامل للتاريخ والحياة والإنسان والكون، ووسّع مداركهم وآفاقهم على المستوى العالمي.

وفي الجيل الأوّل لهذه الأخوّة الإسلاميّة كان أبو بكر العربيّ وبلال الحبشيّ وصهيب الرومي السوريّ وسلمان الفارسيّ كلهم أخوةً بالإيمان، والأجيال اللاحقة كانت مُشابهة، والقوميّة هنا كانت معتقد الإيمان، والوطن هو دار الإسلام، والحاكم هو الله، والدستور هو القرآن.

ليس هناك ثقافة إسلامية بهذه الصورة، لكن هناك تنوّع ثقافات الأقوام الإسلامية لأن الإسلام هو «مصنعة الثقافات» مُحافظٌ على كل ما هو صالح ونابذ كل ما هو طالح من كل ثقافة؛ لذلك فالإسلام هو معقدُ التوحيد للأقوام بروابط الأخوة الإسلامية التي تدور حول الإله المشرّع الواحد. وهذا المفهوم النبيل للوطن والقومية وللعلاقة انطبع في قلوب الدُعاة والمُقاتلين المُسلمين في سبيل الله الحق. لقد جاهدوا لرفع مؤثرات الجاهلية كلها. وهذه الحقائق قد وضّحها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة التي وضع الله هذه المؤثرات (الجاهلية) في كفّة ميزان والإسلام ومسؤولياته في الكفّة الأخرى ودعا الناس للاختيار بينهما، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

الله جلّت قدرته: ضامنُ نصرِ المُؤمنين (١٤ أ، جدة) (١٥ ب، ج)

من طبيعة البشر أنه يتّبع الأقوى: وإيمان المسلمين العميق هو أنّ الله هو العزيز المطلق والمقتدر والأقوى من أيّ مخلوق أو قوة بشرية عُظمى: وهذا الاعتقاد جعلهم يضعون كلّ ثقتهم وتوكّلهم على الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إنّهم عرفوا أنهم إذا كانوا مُمكّنين من قِبل الله فيجب عليهم أن يلتزموا بقوانينه، لقد تعلّموا أن يكونوا عباداً مُطيعين لله: وانعكس ذلك في أسمائهم مثل عبد الله وعبد الرحمن: في التاريخ الإسلامي كما هو في التاريخ الحديث، انتهت الأسماء المشؤومة بكوارث فمثلاً: السفينة (تايتانيك) أي الجبارة سمّوها بالتي لا تُقهر ولا تغرق فمرقت في أوّل رحلة بحريّة! ومكّوك الفضاء (شالينجر) أو المُتحدّي (متحدياً الله!) انفجر بعد ثوانٍ من انطلاقه!

إن الله سبحانه وتعالى يُبيّنُ سُنّته في مصير الحضارات عندما يحكمها طُغاةٌ كُفّار: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

ولهذا كان النبي محمد والخليفة الثاني عمر يكرّران هذه الآيات الأخيرة ٤٤:٢٥-٢٩ بعد كل فتح، وبعد إزاحة أعداء الله، واسترجاع المسلمين للأرض ليكون الوارثين الجدد لأرض الله: لأنهم مؤتمنون في تطبيق شرع الله على أرضه.

كذلك - فإن إيمان المسلمين العميق بالله أدّى لإيمانهم بقدره. إذا كان (الإنسان في التفكير فالله في التدبير). لذلك أدركوا أنهم يجب أن يبذلوا غاية الجهد في تحضير أنفسهم آخذين بالأسباب، ولكن عليهم ترك النتائج (إن ظفرت جيّدة أو سيئة) جلّها في يد الله العليم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۖ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

جلب هذا الاعتقاد السعادة النفسية حتى عندما كان المسلمون يُقتلون دفاعاً عن دينهم. ثم إن الله قرر أنه قد كتب الموت سابقاً لكلّ نفس بتاريخ وميعاد معينين، وإذا لم يحن الميعاد أو يجئ الوقت فالنفس تعيش حتى لو واجهتها أعنف المخاطر. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وهذه الحقيقة أعطت المسلمين راحة نفسية عند موت الأقارب الأعزاء، كما زوّدتهم بأعلى مراتب الشجاعة عند لقاء العدو في المعارك والحروب.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كنتُ خلفَ النبي ﷺ يوماً فقال لي: يا غلام إني أعلّمك كلمات:

- احفظ الله يحفظك.
- احفظ الله تجدهُ تُجاهك.
- إذا سألت فاسأل الله.
- وإذا استعنت فاستعنْ بالله.
- واعلم أنّ الأمّةَ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبَهُ الله لك وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلاّ بشيء قد كتبَهُ الله عليك. رُفعت الأقلامُ وجفّت الصُّحُف). رواه الترمذيّ وقال: حديث حسنٌ صحيحٌ. وفي رواية غير الترمذي:
- (احفظ الله تجدهُ أمامك.
- تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشدّة.
- واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك.
- واعلم أنّ النصر مع الصّبر، وأنّ الفرَجَ مع الكرْب، وأنّ مع العُسْرِ يُسْرًا).

من ثمّ فالإسلام كان وما زال رسالة الله الخالدة، وما دام المسلمون مُطيعين لله ولرسوله فإنهم موعودون بنصر الله النهائي وانتشار رسالته العالمية. وحقّاً فإنّ سرعة انتشار الإسلام كانت ظاهرة غير مسبوقة، وما كانت على أي نحوٍ طبيعيّة وبل وغير المفهومة من حيث قوّتهم وقلة أعدادهم، التي ما كافأت قوى العدو وأعداده. البتة والفتوحات الإسلامية كانت أبعد ما تكون عن تدفق جموع البدو الكاسحة بل كانت حملات موجهة بمجموعة صغيرة من رجال مقتدرين ومصمّمين[٣]. فالإمبراطور شنغ (الذي وحّد الصين)، والإسكندر الكبير (الذي قهر أوروبا وآسية)، وجنكيزخان (الذي قهر الصين وآسية)، وهانيبعل، ونابليون بونابرت، وأدولف هتلر: كلّهم كانوا أصحاب انتصارات كاسحة، ولكن بمجرد موتهم تفككت منظومتهم، وانفرط عقد امبراطوريتهم، وانكسر إلى أجزاء. لكن يتميّز الإسلام عن الجميع بتفرّده بالانتشار الدائم دون مثيل؛ وأينما تحرك الإسلام فكثيراً ما كان السكان المحليّون من العدو نفسه هم الذين مهّدوا وعبّدوا الطريق لمجيء المسلمين؛ مُحرّرين للبشرية وحملة لأعلى القيم الإنسانية الأخلاقيّة ولاسيّما العدالة الإسلامية. لذلك فالله سبحانه يؤكد ذلك بقوله:

- ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].
- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].
- ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].
- ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].
- ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوانين الجهاد في الحرب مُشابهة تماماً لما يقرره النظام العسكري:

- واجه العدو بعد تحضير وتخطيط كامل.
- عند اللقاء يجب الاستمرار بالتنفيذ دون تردد: الموت أو النصر هو شعار كل جُندي ولكن باستثناءين:

- ارجع للوراء للقفز إلى أمام، أو لخداع العدو بالمكر؛
- إذا انعزل فرد أو مجموعة من الجنود في أثناء المعركة عن القوة الأم، فله أو لهم التقهقر لاستجماع القوى والقتال ثانية. لذلك يقول الله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال: ١٦).

لذلك فالمسلمون المطيعون المخلصون موعودون بالنصر من الله. إنّ بدراً وأحُداً هما معلّمان في الإسلام. في معركة بدر كان المسلمون لا يتجاوزون ٣٠٠ وبعُدة قليلة قاتلوا ألفاً من الكفار القادمين من مكّة وانتصروا انتصاراً فاصلاً؛ في حين في معركة أحُد وقع اختبار عظيم للمجتمع المسلم الناشئ، عندما قاتل ٧٠٠ مسلم ٣٠٠٠ كافر قادم من مكة. لذلك فإن عدد الملائكة ألف في "بدر"، و٣٠٠٠ (حتى ٥٠٠٠) في "أحُد" يساوي قوة العدو. فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال: ٩). وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٤-١٢٥).

إنّ معركة أحُد كانت نصراً في بدايتها لكن ٥٠ من رُماة المسلمين عصوا أمر النبي وتركوا مواقعهم على الجبل المطل على المعركة ليشتركوا في المطاردة ومُقاسمة الغنائم (كذلك كانت هناك خيانة الـ ٣٠٠ مُنافق بقيادة عبد الله ابن أبي بن سلول الذي انسحب تاركاً ٧٠٠ من جيش أصله ١٠٠٠ مُقاتل مُسلم). والله يوثق هذا العصيان وقلة صبر هؤلاء الـ٥٠ رامياً مسلماً الذين تركوا الجبل بسبب طمعهم مما أنهى المعركة بخسارة مُضاعفة: ١) أنهم صدُّوا عن الغنائم التي ركضوا إليها، ٢) صارت حياتهم وحياة الجيش الإسلامي كلّه في خطر، وحقيقةً خسر المسلمون عدداً من القادة، منهم حمزة عم النبي، لذا يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢). تحسُّونهم: أي تقتلونهم.

ولمّا كان إمداد الله بالـ ٥٠٠٠ ملَك مشروطاً بصبر المسلمين الذي لم يحدث؛ لذا فإن هذه المجموعة من الملائكة لم تنزل؛ ولكن بلا شك بتأييد الله انقذت المدينة المنورة، ولكن درساً مُهماً في الإيمان والثبات والصلاة ومواظبة الصبر والرسوخ المخلص تعلّمه المسلمون.

ولكن في أثناء الفتوح اللاحقة للنبي مُحمّد ﷺ، كان المسلمون شديدي الحرص على طاعة رسول الله وبذلك رحبوا جميع المُنازلات الأخيرة. وحقاً يقول النبي ﷺ: (نُصرت بالرُعب مسيرة شهر). صحيح البخاري.

ففي حروب الإسلام (الدفاعية) ضد الكفّار، ظهرت قيم وأخلاق الإسلام العظيمة وترجمت عملياً على أرض الواقع، ومن ذلك وصية أبي بكر (خليفة رسول الله) لجيش أسامة عام ٦٣٢ م، التي تُشكّل أول قانون عالمي لأخلاقيات الحروب، قبل معاهدة جنيف بوقت طويل. يخطب أبو بكر بجيش أسامة بن زيد قائلاً[٢]: (يا أيُها الناس، قفوا وصيتي بعشر فاحفظوها عنّي:

- لا تخونوا
- ولا تغلّوا،
- ولا تغدروا،

- ولا تُمثّلوا،
- لا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة [إلا إذا حملت السلاح لتقاتل].
- ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً،
- ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلاّ لمأكلة،
- وسوف تمرُّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعُوهم وما فرّغوا أنفسهم له.
- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم آنية فيها ألوانٌ الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها.
- وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً.

اندفعوا باسم الله...). تاريخ الطبري، جـ ٢، (١-٣٥ هـ).

كذلك فإن الوصفة السريّة للنصر عند الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب تتجسد في وصيته لسعد بن أبي وقّاص المُرسَل إلى العراق عام ٦٣٦ م، قُبيل انتصارهم في القادسية، المعركة الفاصلة التي قوّضت صرح الإمبراطورية الفارسيّة[1]:

(أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد:

- بتقوى الله على كُلّ حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العُدّة على العدو، وأقوى المُكْدة في الحرب،
- وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدّتنا كعُدّتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا تُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا،
- واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم،
- ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله،
- ولا تقولوا إن عدوّنا شرّ منّا ولن يُسلط علينا وإن أسأنا، فربّ قوم سُلّط عليهم شرٌّ منهم كما سُلّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس، فجاسوا في أثناء الديار، وكان وعداً مفعولاً،
- اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم، أسألُ اللهَ ذلك لنا ولكم...). تاريخ الطبري.

لقد كان معروفاً للمؤرخين أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء (في العربية صحابة أو أصحاب مفردها صحابيّ: هو كُلّ من رأى النبي وآمن به ومات مُسلماً، بينما تابعي جمعه تابعيّون: هو المسلم الذي رأى صحابياً). بعد النبي مُحمّد كان صحابته أكثر الناس بركة وفضلاً والأكثر تقوى لله وتذكيراً برسول الله (بعد وفاته). ولهذا السبب يقول النبي ﷺ:

(يأتي على الناس زمانٌ يغزو فئامٌ من الناس، فيُقالُ: هل فيكم مَن صَحِبَ النبيَ ﷺ؟ فيُقال: نعم، فيُفتح عليه، ثم يأتي زمانٌ فيُقال: فيكم مَن صَحِبَ أصحابَ النبي ﷺ؟ فيُقال: نعم، فيُفتح عليه، ثم يأتي زمانٌ فيُقال: فيكم مَن صَحِبَ أصحابَ أصحاب النبي ﷺ؟ فيُقال: نعم فيُفتح). صحيح البُخاري.

ففي معركة اليرموك كان هناك ألف رجل من الصحابة منهم مئة من أهل بدر (والذين هم أفضل جميع الصحابة على الإطلاق، وكثرٌ من المبروكين ومن بقية النبي مُحمّد). لذلك السبب فعندما أمر الخليفة أبو بكر

قسّمه خالد بن الوليد (قبل اليرموك) بتقسيم جيشه إلى شطرين يقود خالد أحدهما ويقود المثنى بن الحارثة الشطر الآخر من الجيش في حملة عسكرية إلى العراق. استأثر القائد الخالد بصحابة النبي لنفسه؛ رفض المثنى الخروج من دون حصّته في النصف من صحابة النبي، وقال: (والله لا أقيم إلاّ على إنفاذ أمر أبي بكر كلّه في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف؛ وبالله ما أرجو النصر إلاّ بهم. فأنى تُعريني أي تحرمني! فلما رأى ذلك خالد بعد ما تكأ عليه أعاضه منهم حتى رضي مُثنى. انظر: تاريخ الطبري.

وبعد هزيمة اليرموك الساحقة لجيوش الإمبراطورية الرومانية التي تقهقرت إلى انطاكية، حيث هرقل الذي أذهله كل العجب وسألهم:

(ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ فقالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخٌ من عُظمائهم:

"من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم؛ ومن أجل أنّا نشرب الخمر، ونزني، نرتكب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم ونأمر بسُخط ونتهى عما يُرضي الله ونُفسد في الأرض").

إن رجلاً من نصارى العرب كان يتجسّس للرومان فيجمع المعلومات سراً عن مُخيّم المسلمين فيأتي بهذه الرسالة: (وجدت قوماً رُهباناً بالليل فُرساناً بالنهار، والله لو سرق فيهم ابنُ ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه)

إن الله قد ضمن تأييده ونصره للمسلمين المطيعين له. عندما أعجب المسلمون باثنين من القادة: القائد العسكري الأسطوريّ خالد بن الوليد، والقائد مُثنى بن حارثة، ظانّين أن انتصارات الإسلام كانت بسبب عبقرية قادتهم، كان الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب واثقاً من نصر الله (بغضّ النظر مَن هو القائد)، لذا قرر تغييرهما (مستبدلاً المُثنى بسعد بن أبي وقّاص، وخالد بأبي عبيدة) وعندما فعل ذلك، استمرت الانتصارات الإسلامية كما كانت من قبل ولكن بقياديين مُختلفين. وبذلك أثبت الخليفة عمر صحة رؤيته لجميع المسلمين؛ ومن ثم كتب إلى نشاط الأمصار الإسلامية العسكرية: (إنّي لم أعزل خالداً عن سُخطة ولا خيانة، ولكن الناس فُتنوا به، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع)[٢].

وعند قدوم عمر إلى الشام (القدس) دخل قائده العسكريّ خالد ليُرحّب به، فأنشد عمر قول الشاعر:

صنعتَ فلم يصنعْ كصنعك صانعٌ ... وما يصنع الأقوام فالله صانعُ[٣]

ومن المُدهش أن القادة المسلمين كانوا يُعيّنون ويُعزلون بأمر الخلفاء، وليس هناك مثال في مخطوطات الكتب لقائد تمرّدَ ضد الخلافة أو عصى الأوامر؛ وهذا بمقارنة واضحة مع الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية التي شهدت في أزمنة مختلفة شللاً فعلياً بسبب تمردات قادتها وولاتها ضد حُكامهم[٤]. وهذه الحقيقة تشهد أن المسلمين كانوا يقاتلون بصدقٍ في سبيل الله (وجنّاته)، لا من أجل تحصيل شخصيّ ولا من أجل سُمعة أو صيت.

(ويقال إن الخليفة عمر الثاني (٧١٧–٧٢٠) لهو الخليفة عمر بن عبد العزيز قد أرسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطيّ ليو الثالث. وهذه الرسالة المنسوبة لعمر (في نسختها التي وصلتنا) كانت على ما يبدو مكتوبة من قبل كاتب مسلم من القرن التاسع الميلادي. لكنها تُعطي مثالاً جيداً لنظرات علماء الإسلام إلى النصرانية في تطوّرها الحيّ آنذاك. فالمؤلف يرى أن النصارى قد زيّفوا الكتب المقدسة؛ وأن عيسى لم يدّعِ أنه إله، بل هو رسول أرسله

الله وأنه بشّر بمجيء مُحمّد؛ وأنه علّم عبادة الإله الواحد (الله)؛ لأنه كان موحّداً ولم يُعلّم أبداً مبدأ التثليث (الأب، الابن، روح القدس).

ولنقاشاته هذه جميعاً فهو يستشهد بالأدلة من نصوص الإنجيل (بضبط قد يختلف بعض الشيء) وهو يهاجم عبادة الآثار المقدسة (كالرُفات والتذكار) وعبادة الصليب والصور والتماثيل. وهو يقدّم دفاعاً مُلخّصاً عن العقيدة الإسلامية ضدّ انتقادات النصرانية. ومن ثمّ يستنتج مُستدلّاً انتشار الإسلام المُعجز: «بعد الاستعانة بالله الذي نؤمن به وحده، فقد خرجنا حُفاةً وعُراةً بلا عُدّةٍ ولا عدد ولا سلاح ولا مُؤن اكتثرنا لنُقارع أكبر الإمبراطوريات وأقوى الأمم التي حكمت الشعوب بالجور والظلم والقسوة أي: الفرس والروم.

لقد زحفنا إليهم بأعدادنا القليلة ومواردنا الضئيلة. ولكن الله مكّننا من الانتصار عليهم جميعاً والاستيلاء على مُمتلكاتهم، وهو الذي أسكننا أرضهم وبيوتهم، ومنّ علينا بثرواتهم، وما كان لنا إلاّ عظمة وقوة دين الحقّ. فالحمد لله على نصره وقدرته ورحمته، ومنذ ذلك الوقت امتد انتشار الإسلام لم تتوقف عطاياه العامرة لنا ليلاً ونهاراً مرةً بعد مرة حتى وصلنا لما وصلنا إليه اليوم من كرمه علينا وجوده الغامر وقوته... وأما فيما يخص نا، فإننا نجدُ في تنزيل الله على نبيّنا كما يقول هو سبحانه وتعالى عنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

إن الصعود التركي للإسلام يبدو معجزةً حقّاً: حفنةٌ من المحاربين من الصحراء يُخضعون أغنى وأكثر أجزاء العالم سكاناً لأعظم وأقوى الإمبراطوريات. بالتأكيد، قد فضّل الله دين الإسلام وأراد من رعاياه أحفاد التحوّل لدينه. والغالبية (تدريجياً وعبر عدة أجيال) سوف تصل إلى هذا الاستنتاج نفسه، والغالبية ستعتنق الإسلام لذلك ولكن الذين رفضوا الإسلام، واختاروا البقاء على نصرانيتهم، وجب عليهم الإجابة عن هذا السؤال الهائل: لماذا مكّن الله هذه النجاحات المذهلة لدين الإسلام؟؟؟»[٢٠].

العدالة في العالم الإسلامي كانت أسطورية من دون نظير بأي مكان في العالم ولم يُسمع بنظير لها في التاريخ البشري[٢١]. الحوادث الآتية تمثل ثلاثة نماذج جديرة بالذكر (وهي غيضٌ من فيض):

- بعد فتح مكة وعندما اعترفت المرأة المخزومية (بنو مخزوم هم ثاني قبيلة شهرةً بعد بني هاشم) بالسرقة (وكانت تستعير المتاع وتجحده مراراً) وكانت الدلائل على سرقتها قطعيّة، أحيلت قضيتها للنبي محمد ﷺ، الذي حكم بحكم الله وهو قطع يدها اليمنى (من الرسغ). فشعرت قُريش أن اسمها قد لُطّخ وشهرتها قد تقوّضت وتشوّهت؛ لذلك طلبوا من أسامة بن زيد (ابن النبي بالتبني وحبّه) أن يتكلم نيابة عنهم ويطلب من النبي تخفيف العقوبة.

فقال رسول الله ﷺ (بغضب): **(أتشفع في حدٍّ من حدود الله تعالى؟)** ثم قام فاختطب، ثم قال **(إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**. متفق عليه.

وبعد قطع يد هذه المرأة قالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: **(نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)** إنّ هذه المرأة حسُنت توبتها بعد، وتزوجت. فأنزل الله تعالى فيها توثيقاً في القرآن: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

والذي يبدو أنه في عصر المسيح، كان السرّاق يُصلبون (متى ٢٧–٣٨)؛ ثم إن العرب قبل الإسلام كانوا يعملون بقطع يد السارق. ولكن في الإسلام لا تُعاقب كلُّ سرقة بقطع اليد إلاّ إذا ثبت أن: (١) الشيء المسروق كان في حرز كصندوق المال؛ (٢) لا يكون السارق في حاجة، فإنه في المجاعة، وفي سرقة الخدم المحتاجين لا تقطع اليد. (٣) قيمة الشيء المسروق يعادل ثمن درع في تلك الأيام (بما يُساوي ربع دينار ذهبي)؛ وفقهاء القانون غير متفقين على القيمة العصرية للشيء المسروق الذي يؤدي للعقاب بقطع اليد والغالبية يجمعون على أن السرقات التافهة (ال الصغيرة) مُستثناة من العقوبة؛ وهناك استثناءات كثيرة أخرى. لذلك فإن هذه العقوبة الإسلامية توظف كرادع للآخرين. ويقال إنه في قرون الحكم الإسلامي الطويلة، كان العدد المُفيد للأيادي المقطوعة بسبب السرقة ضئيلاً جداً حتى إنه يُعد بالأصابع.

وهذه الحادثة حقاً توضّح أن المعيار القانوني الموحّد والمُطبّق على جميع الناس دون تمايز وبغضّ النظر عن المركز والجاه والثروة والعرق، والعلاقات كان حقاً أعظم وأحدث قيمة جلبها العدل الإسلامي للبشرية. والنبي هنا أيضاً يُعطي تفسير التاريخ بتوضيحه جلياً أن واحداً من أهم أسباب هبوط وسقوط الحضارات يكمن في تبني المعيار القانوني المزدوج، عندما يُطبق القانون على مجموعة من الناس ولا يطبق على آخرين بسبب جاههم واسمهم وشهرتهم وعرقهم ومركزهم الحكومي. في العالم الإسلامي لم يكن هناك أحدٌ فوق القانون؛ وكان القانون مُطبّقاً على الجميع (فرؤوس الدولة يُحالون للمحاكمات كالآخرين في محاكم القضاء حيث القُضاة وسلطان القضاء مستقلان تماماً عن الدولة)

♦ عندما اشتُبه طعمة بن أبيرق (أنصاريٌ مُسلم بالاسم فقط، لكنه حقيقة منافق أدمن على جميع الأعمال الشريرة) بسرقة درع محفوظ في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره. وعندما استدّت المحاكمة أقسم بالله أنه لم يسرق (كذباً)، ومن ثم قام بوضع الدرع مع جراب الدقيق ودفعه إلى منزل رجل يهودي (اسمه زيد بن السمين) ووجد الدرع عنده (لاستخدام اليهودي كبش فداء لتلفّق له تهمة سرقة لم يفعلها). لكن زعم اليهودي أنكر التهمة وادّعى أن طعمة هو الذي دفع الدرع له. وتعاطف المسلمون مع قبيلة طعمة المسلمة كون طعمة مسلم بالاسم. وأحيلت القضية إلى النبي محمد، الذي برّأ وأطلق سراح اليهودي طبقاً لقاعدة العدالة الصارمة، بهداية الله. وقد كانت هنالك محاولات للتلاعب بمحمد ومحاولة خداعه لاستخدام سلطته ومحاباة طعمة المسلم ضد اليهودي. وعندما أحسّ طعمة أن العقوبة وشيكة، هرب من المدينة وارتد عن الإسلام (وفي مكة حاول طعمة السرقة ثانية قبل خروجه من مكة، فخرج مع تجار من قُضاعة نحو الشام، فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب. فطلبوه وأخذوه ورموه بالحجارة حتى قتلوه). ويُسجّل القرآن هذه الحادثة بجمال كما حدثت ويوثق كيف أن الله عز وجل أقام العدالة عن طريق الوحي لنبيّه للدفاع عن براءة يهودي ضد فظاعة طعمة (المُسلم اسماً): ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝﴾ (النساء، ١٠٥–١٠٨). انظر: تفسير البغوي.

♦ عندما قام ابن عمرو بن العاص (وعمرو بن العاص آنذاك والي أو حاكم مصر) بضرب مواطن قبطي بالسياط (لأنه سبق فرسه في سباق للخيل)؛ قام هذا القبطي (عارفاً بالعدالة الإسلامية) بالسفر قاطعاً كل المسافة من مصر للمدينة ليشكو شخصياً للخليفة عمر بن الخطاب ابن عمرو بن العاص. فأمر الخليفة والي مصر بالقدوم مباشرةً إلى المدينة مصحوباً بابنه. ولما حضر عمرو بن العاص المدينة مع ابنه: قام عمر (الخليفة) يأمر المواطن المصري القبطي بالقصاص من ابن عمرو بن العاص ويقول له: لو ضربت أباه عمراً لما حلنا بينك وبين ذلك (مؤكداً

أنه لولا أبوه ما تجرأ الابن على هذا التصرف أبداً؛ لكن القبطي اكتفى بضرب الابن فقط)؛ ثم قال الخليفة العادل عمر بن الخطاب قولته المشهورة (التي صارت قاعدة أو قانوناً في الأحكام والإدارة الإسلامية وفي تسيير شؤون الناس على نحو عام): (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!).

باستثناء نادر لشبه الجزيرة الأيبيرية (أي إسبانية والبرتغال) أينما حلّ ووصل المسلمون فإن الناس تحوّلوا للإسلام على نحو دائم، واللغة العربية كانت تابعاً للإسلام كلغة التداول عند العامة في هذا الجزء الجديد من العالم الإسلامي. إنّ الحضارة هي كالكائن البشري يقوم على ساقين: القوة المادية (العلم أو هاي – تيك) والقوة الخُلقية (الدين أو القيم الإنسانية)؛ والحضارة الإسلامية بالرغم من قصورها الابتدائي وعدم حيازتها لأفضل (هاي –تيك)، لكنها تابرت بشدة لامتلاكها (مُستوحية ذلك من تعاليم الإسلام) لمضارعة خصومها (الكفّار)، لكن القيم الأخلاقية والإنسانية الإسلامية والمستوحاة من الله والمترجمة واقعياً في النبي محمد البشري وأتباعه المسلمين أعطى العالم والبشرية ما كانت دوماً تحتاجه (لكنها لم تحصلها أو ضيعت الفرصة للحصول عليها) من القيم الحيوية مثل العدالة، والمساواة، والأخوة.

الإسلام غيّر نظام العالم القديم للأبد، مُحوّلاً إيّاه إلى قرية عالمية (الموحّد بإيمان الناس برب واحد؛ والذين يعيشون بسلام مع الله ومع أنفسهم، ومع الآخرين) وأول مرة في تاريخ البشرية.

يقال إن التطبيق الصحيح للإسلام يضمن دوماً شيئين: سعادة الإنسان (حتى في أثناء مرضه ومعاناته) زائد بركات الله في حياة الإنسان (في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة).

الصلة المتبادلة بين الإسلام واللغة العربية[1]

لإيضاح التأثير المتبادل بين الإسلام واللغة العربية، يستطيع المرء أن يركّز على مفهوم التوحيد أن الله واحد أحد (يستحق العبادة والطاعة وحده) ويتضافر القرآن العربي والحديث النبوي في إخراج ٩٩ اسماً حسناً مقدّساً لله. يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة) و(الله وتر يحبُّ الوتر). صحيح البخاري، الحديث رقم ٤١٩. الأسماء الحسنى المقدسة الـ ٩٩ لله (الله هو الاسم الأصيل للربّ جلّ وعلا) الواردة في القرآن والحديث، وهي: الله لا إله إلا هو:

١. الرحمن	١٤. الغفار	٢٧. البصير
٢. الرحيم	١٥. القهار	٢٨. الحكم
٣. الملك	١٦. الوهّاب أو المعطي	٢٩. العدل
٤. القدوس	١٧. الرزّاق	٣٠. اللطيف
٥. السلام	١٨. الفتّاح	٣١. الخبير
٦. المؤمن	١٩. العليم	٣٢. الحليم
٧. المهيمن	٢٠. القابض	٣٣. العظيم
٨. العزيز	٢١. الباسط	٣٤. الغفور
٩. الجبار	٢٢. الخافض	٣٥. الشكور
١٠. المتكبّر	٢٣. الرافع	٣٦. العلي
١١. الخالق	٢٤. المعزّ	٣٧. الكبير
١٢. البارئ	٢٥. المذلّ	٣٨. الحفيظ
١٣. المصور	٢٦. السميع	٣٩. المقيت

٤٠. الحسيب
٤١. الجليل
٤٢. الكريم (كثير العطاء) والمُحسن (المُعطي بالرغم من الإساءة ودون مقابل)
٤٣. الرقيب
٤٤. المُجيب
٤٥. الواسع
٤٦. الحكيم
٤٧. الودود
٤٨. المجيد
٤٩. الباعث
٥٠. الشهيد
٥١. الحق
٥٢. الوكيل
٥٣. القوي
٥٤. المتين
٥٥. الولي
٥٦. الحميد
٥٧. المحصي
٥٨. المُبدئ
٥٩. المعيد
٦٠. المحيي
٦١. المُميت
٦٢. الحيّ (الذي لا يموت)
٦٣. القيّوم (القائم فوق كل شيء ولا ينام أبدا)
٦٤. الواجد
٦٥. الماجد
٦٦. الواحد (عددا وترا)
٦٧. الأحد (ليس كمثله شيء)
٦٨. الصمد (السيد المطلق فاكتفاؤه ذاتي لا يأكل ولا يشرب، ويحتاج إليه الخلق كلهم وهو لا يحتاج إلى أحد البتة).
٦٩. القادر
٧٠. المقتدر
٧١. المُقدم
٧٢. المؤخر
٧٣. الأوّل
٧٤. الآخر
٧٥. الظاهر
٧٦. الباطن
٧٧. الوالي
٧٨. المتعالي
٧٩. البرّ
٨٠. التوّاب
٨١. المنتقم
٨٢. العفوّ
٨٣. الرؤوف
٨٤. مالك الملك
٨٥. ذو الجلال والإكرام
٨٦. المُقسط
٨٧. الجامع
٨٨. الغني
٨٩. المغني
٩٠. المانع
٩١. النافع
٩٢. الضار
٩٣. النّور
٩٤. الهادي
٩٥. البديع أو بديع السموات والأرض
٩٦. الباقي
٩٧. الوارث
٩٨. الرشيد
٩٩. الصبور

هذه الأسماء العربية الوصفية الـ (٩٩) لله الواحد، هي ليست فقط إغناء للغة العربية (بالقرآن والحديث)، ولكنها تأكيدٌ على عدم وجود وسط لغوي غني «كالعربية» واحتوى وعبّر عن المعاني الصحيحة التي تصف الله سبحانه وتعالى بهذه الدّقة والغنى بالمفردات والأوصاف الفنية.

نقلت جريدة «الشروق» الجزائرية (فيما أوردته الدكتورة عُلى الألفي في موقع بوتقة) واحدة من دلائل عظمة الخالق في اسمه جاءت على لسان غير عربي وديانة غير إسلامية: هيلين، الفتاة الإسبانية التي تدرس ماجستير لغة عربية في جامعة اليرموك الأردنية، إذ قامت بتقديم شروح مبدعة للفظ الجلالة: الله، قالت: (إن أجمل ما قرأت بالعربية هو اسم الله، فالية ذكر اسمه سبحانه وتعالى على اللسان البشري لها نغمة متفردة، لأن مكونات حروفه من دون الأسماء جميعها يأتي ذكرها من خالص الجوف وليس من الشفتين، فلفظ الجلالة لا تنطق به الشفاه لخلوه من النقاط!) وأضافت الطالبة التي أعجزت أستاذها: (لفظ الجلالة، من إعجاز اسمه، أنه مهما نقصت حروفه فإن الاسم يبقى كما هو، دون أن يشوبه أي تغيير، وكما هو معروف أن لفظ الجلالة يُشكّل بالضمة في نهاية الحرف الأخير: اللهُ) وأكملت قائلة: (وإذا ما حذفنا الحرف الأول يصبح اسمه لله كما هو في الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وإذا ما حذفنا الألف واللام الأولى بقيت "له" ولا يزال مدلولها الإلهي كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الحشر: ٢٤).

وإن حذفت الألف واللام الأولى والثانية بقيت الهاء بالضمة "هُ"، وبالرغم من ذلك تبقى الإشارة إليه سبحانه وتعالى كما قال في كتابه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (الحشر: ٢٢).

أما إذا ما حذفت اللام الأولى بقيت "إله" كما قال تعالى في الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وبناءً على ذلك، فقد حازت اللغة العربية على موقع مقدّس جداً في أعين كل المؤمنين (بالإسلام)، ومن هنا كان الإسلام واللغة العربية متلازمين دوماً دون انفصال

لذلك فكثيراً ما يُصطلح للعربية اسم «اللغة الإسلامية»، أو «لغة الإسلام» كما يجب أن تسمّى أيضاً «لغة الإسلام والوئام»

العربية: لغة الثقافة الجديدة في العالم الإسلامي[١٩]:

كانت اللغة العربية الوسط ولغة التداول الشائعة للعالم الإسلامي للحاجة الدينية لها، كما هي لحاجة الأعمال والتجارة والفعاليات العلمية لتلك اللغة.

أنتجت الفتوحات العربية/ الإسلامية العظيمة في القرنين السابع والثامن نتاجين خطيري الأهمية وطويلي المدى فالتأثير المباشر والمثير كان في تكوين دولة عالمية جديدة حول حوض البحر المتوسط والشرق القريب (يسار لها أخيراً بالعالم الإسلامي). والنتاج الثاني الأقل سرعة وإثارة ولكنه لا يقل أهمية هو تطوّر ثقافة عالم جديدة لهذه الدولة فالإسلام هو مصفاة الثقافات، الذي يُصفّي ثقافات الشعوب الخاضعة، ومن ثمّ يمزجها بالتفسير الإسلامي الشامل لله والتاريخ والحياة والبشرية والكون؛ وكما كان الإسلام يصور نفسه معتقداً كلّ مناحي الحياة البشرية، فلا فاعلية فرد ولا جماعة غريبة عليه، يوظف المسلمون (داخل إطار هذه الثقافة المصفاة إسلامياً) الآداب التقليدية، والطريقة الهيلينية في التفكير، والمؤسسات البيزنطية، وقانون الإدارة الروماني، والمدارسة السريانية، والفن الفارسي. وجُرّدت داخل دولة الإسلام الجديدة هذه أو عالم الإسلام (أو الخلافة) الثقافات المتنوعة والمجتمعات للعالم القديم من إقليميتها، ودُمجت في تفاعل مثمر بناء جديد. ونتج عن ذلك ثقافة عالم جديد، حيث مكوّناته الرئيسة موجودة أصلاً في حياة وإرث شعوب البلاد المفتوحة، لذلك فإن هذه الثقافة الغنية المتميزة قد تكونت في الموضع نفسه، بخلاف فرض الثقافة الأجنبية بالغزو، وهي ليست العملية نفسها التي حملت الحضارة الغربية إلى الشرق في مرحلة الاستعمار الأوروبي.

وقد استجاب الفاتحون العرب أنفسهم بسرعة للتواصل مع الحضارات التي اكتسحوها: وبمجرد الارتخاء بعد الامتصاص الأولي للفتح، «جلس العرب المسلمون كالتلاميذ أمام علماء الشعوب التي أخضعوها – ويا لهم من تلاميذ وطلاب علم نابهين» كما نبّه فيليب حتّي. وقبل نهاية أول سلالة عربية (الأموية) كانت الأعمال التقليدية قد تُرجمت إلى العربية، والعمارات المثيرة للإعجاب قد بُنيت، وعلوم البحث عند العرب في الآداب والعلوم قد بدأت تتعثر. وبعد زمان وفي الوقت الذي فقد العرب تألقهم بالحكم، كانت العناصر غير العربية قد توطّدت في الحياة والفكر للمجتمع المسلم. ووصل هذا التكوين للثقافة الإسلامية المتميّزة ذروته في وقت كانت القيادة العربية لدول العالم الإسلامي (المسماة خطأً إمبراطورية) في هبوط (مع ارتفاع نجم السلالة العباسية عام ٧٥٠م).

إن كلاً من الفتوحات والثقافة كان له التأثير العميق في شكل العصر الحديث. ولا سيّما فإن هذه الثقافة العالمية المُصفاة إسلامياً في دولة الإسلام وعالمه هذه قد أدّت سريعاً إلى حضارة متميزة كذلك وبلون غنيّ معين التي

ميّزت العالم الإسلامي معطيةً إياه هويةً وسمة نظام العالم الجديد من جرّاء فتوحات الإسلام المنتشرة عبر الشعوب الأجنبية. والتأثير وثيق العلاقة لهذه الخلافة شاملة المضامين وللدين الاستثنائي كان في إسهام العرب في بزوغ نجم ثقافة جديدة بلغتهم. وكيفية اختراق ونفوذ اللغة العربية في تطور الثقافة المسلمة هو أمر لا مفرّ منه، ويتمثل في حقيقة النظام الذي تكوّن آخراً، الذي نشير إليه بالحضارة العربية والفكر العربي، بالرغم من أن الكثير من إنجازات الثقافة العظيمة لم تحصل تحت رعايات عربية، ففي العرب بل حتى غير المسلمين قاموا بإسهامات مهمة، وكثيرهم قاموا بها باللغة العربية، مهما كانت أعراق أصولهم الاجتماعية. كما أكدنا سابقاً أن الإسلام كان وسيلة نقل العربية على نحوٍ رائد. فالقرآن مصدر كل العقيدة والتقوى، كان عربياً ولا يمكن ترجمته حرفياً لأي لسان آخر (لكنّ معاني القرآن يمكن ترجمتها). ولتفسير القرآن اقتضى أن يكون بعض العرب الأوائل علماء بحث، ثم إن حقيقة اختيار الله للعربية لغةً للتنزيل جعل دراسة قواعدها النحويّة واستعمالاتها واجباً دينياً. وباختصار لا يستطيع المرء أن يكون مسلماً دون بعض الفهم للغة العربية. وفيما يخص اللغة العربية يوضح الأستاذ جون بادو في (عبقرية حضارة العرب — مصدر للنهضة [الأوروبية])[٢]:

(ومع ذلك فإن هناك ما هو أكثر من الفتوحات والدين الذي رفع العربية إلى موضع التألق في الثقافة المسلمة. فبالرغم من ميزتها الأصلية لغةً للصحراء، فالعربية أبدت طاقة كامنة رائعة كوسط للتواصل اللغوي الدوّاق والمعقّد. فهي تمتلك تركيباً واضحاً جداً للّغات السامية، التي تكون أجزاء الكلام فيها مترابطة بوضوح وبإحكام، وهي تستطيع خلق كلمات جديدة من الأشكال اللفظية الموجودة، وقابليتها لرسم ظلال من المعاني في تعبير مثير واحد يجعلها لغة دقيقة ومفعمة بالحياة. وحين توسّعت بالنحويين وتحضّرت بالتحدي في الآفاق الجديدة، أصبحت آلة ممتازة للفكر وعلوم البحث. ولو كانت فاقدة لنوعية الجودة العظيمة المتأصلة فيها، فلا وطأة الفتوح ولا التزمّت الديني يستطيعان إعطاء العربية هذا الموقع المسيطر في عالم الإسلام مترامي الأطراف وعديد الألسنة، وتأثيرات تفوّق العربية وسيادتها على الثقافة عميقة وبعيدة المدى.

فالعربية جهّزت الوسط الشامل (متضمن الجميع) للتواصل الذي يترجم السياسات المختلطة لأنواع الشعوب في ثقافة مشتركة موحّدة. فكما فعلت اللغة اللاتينية في أوروبا العصور الوسطى، والإنجليزية في الهند البريطانية، فعلت العربية فعلها في الدولة الجديدة مُهيمنةً على اللغات الإقليمية والآداب لتخلق دنيا فكرية عالمية جديدة حيث فلاسفة الفرس، وفقهاء العرب، وأحبار اليهود والنصارى، والرياضيون الهنود يمكنهم جميعاً النطق بلغة واحدة مشتركة، وكلّهم مع ذلك يستطيعون الإحساس بالمشاركة في نظام فكريّ مشترك. وإضافة إلى ذلك فاستعمال العربية وتبنّي ألف باتها من قبل اللغات الإسلامية غير العربية شكّلت نوعاً من حدود الاستكشاف اللغوي حوّلت الشعوب المسلمة من ثقافتها السابقة وأعطتها نوعاً من الهوية والوعي الذي يميّزهم عن الشعوب الأخرى. واللغة العربية صارت تداخلاً مترابطاً بين الوسط والرسالة. فالسمات فائقة التميز للعربية، وغناها، ومحتويات ألفاظها، وأسلوبها الخاص في التعبير عن الفكرة، ونزوعها لأوزان الشعر والقافية – كلها تضع بصمة التألق العلمي على نتاجاته، وعلى عقول علماء ومعها تكهة خاصة لعالم الفكر الإسلامي. لهذا فإن الخاصّية الفريدة لثقافة الإسلام في العصور الوسطى تكمن جزئياً في عمله بالعربية ومثل إسهام الإسلام، فتأثير العربية النافذ كلغة عربية (عروبة) عالم العصور أو القرون الوسطى لمدى طويل وحتى بعد مرحلة حكم العرب السياسي)[٣].

المراجع

1. **Al-Tabar , Tarikh: The History of Nations and Kings (2nd Volume).**
تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ، ج ٢ (١–٣٥). دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ–١٩٨٧م.

2. **Ibn Kath r: Al-Bidayah wal Nihaya (The Beginning and The End) - 2nd and 3rd Volumes.**
البداية والنهاية: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير، مج٢–٤ (ج ٥–٨). دار الفكر، بيروت. ١٣٩٨ هـ–١٩٧٨م.

3. **Hugh Kennedy. The Great Arab Conquests-How The Spread of Islam Changed The World We Live In.** Published by Weidenfeld & Nicolson, London, 2007, extracts from book cover, preface, and conclusion.

4. **a. The Holy Qur'an (English translation of the meanings and Commentary).** The Custodian of The Two Holy Mosques King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. **Mus'haf Al-Madinah Al-Munawarah** under The Auspices of The Mimstry of Hajj and Endowments. The Kingdom of Saudi Arabia. 1413 H. pages according to specified verses as cited in the text.

b. Translation of the meanings The Noble Qur'an in the English Language. By Dr Muhammad Taqi-ud-D n al-Hilali AND Dr Muhammad Muhsin Khan. King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. Medina ،The Kingdom of Saudi Arabia. 1404 H.

c. The Glorious Qur'an-Text & Explanatory Translation. By **Marmaduke Pickthall**. Karachi: Taj company Ltd ،(undated).

d. The Holy Qur'an-Text ،Translation and Commentary. By Yusuf Ali. Compliments of Al Rajhi Company For Currency exchange and Commerce. Published by Amana **Corporation** ،Maryland USA. 1983

5. **a. Sahihs of Hadiths** related by the six: [Sahih] Al-Bukhari ،[Shaih] Muslim ،At-Tirmidhi ،Abu **Dawood** ،Ibn Majah ،and Al-Nisa'i.

b. An-Nawawis Forty Hadith (An Anthology of the Sayings of the Prophet Muhammad). Translated by **Ezzedin Ibrahim and Denys Johnson-Davies**. The Holy Koran Publishing House ،Beirut and Damascus. 4th Edition. 1979.

c. Ibn Qayyim Al-Jawzi'yah. Zad Al-Ma'ad fi Hadi Khair Al-Ibad. Page 45
زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن قيّم الجوزيّة. ص ٤٥. دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

6. **Kerry Brnwn and Martin Palmer** (Editors). **The Essential Teachings of Islam-Daily readings from the sacred texts**. Rider. London. 1987. Pages 9-11.

7. **Chris Lowney. A Vanished World (Muslims ،Christians ،and Jews in Medieval Spain).** Oxford University Press. 2006. Pages 5 ،10-13 ،255-260.

8. **Tariq Ramadan. The Messenger-The Meanings of the Life of Muhammad**. Oxford University Press in USA and Allen Lane (an imprint of Penguin Books) in UK. 2007. Pages: 161،171-174،187 ،200-204.

9. **John R Hayes (Editor). The Genius of Arab Civilization-Source of Renaissance.** Phaidon Press Ltd. Oxford 1976 ،pages 2 ،12-13 ،201-205.

10. **John V. Tolan. Saracens (Islam in the Medieval European Imagination).** Columbia University Press. New York ،2002. Page 37.